

العودة إلى الربَّانية

نظرات في فاتحة الكتاب

فضيلة الشيخ / د. محمد الدبيسي

غفر الله له ولوالديه

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٣٥ هـ/ يوليو ٢٠١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد؛

فهذه الرسالة تفريغ لمجموعة من خطب سلسلة (**العودة إلى الربانية**) وهي خطبٌ كان **فضيلة الشيخ/ د. محمد الدبيسي** قد ألقاها في شهري **مارس وإبريل عام ٢٠١٣ م** أطلق فيها صيحة تحذير من خطورة تقصير أهل الإيمان في طريق الدعوة إلى الله تعالى، وهو طريق الربانية، وقدم فيها النصح بمسارعة العودة إلى هذا الطريق.

وقد قدمت الخطب أهم معالم طريق الربانية، وأولها العود إلى كتاب الله تعالى، قراءة وتدبرًا وتعلمًا وتعليمًا، وبينت كذلك

مثال على تدبر آيات القرآن بتدبر آيات فاتحة الكتاب وهي أول وأهم ما يحتاج أهل الإيمان النظر فيه.

إن قضية العلم والتعلم والتدبر لكلام الله وآياته المبصرة، توضح الطريق، وتنير لأعين القلوب معالمه، وتخرج بأهل الإيمان من التيه الذي يحيون فيه، بعد أن ساروا في غير طريق الدعوة حتى فقدت الدعوة مواقع كثيرة لها، وفقدت مصداقيتها في صورة الدعاة إلى الله تعالى، واهتزت صورة الإسلام والمسلمين، فكان لزامًا التنبيه والعودة إلى طريق الدعوة مرة أخرى.

إن أي أعمال أخرى، سياسية كانت، أو اجتماعية أو اقتصادية، لا بد أن تكون لها تلك الأسس الصلبة، التي هي دعوة الله، هي الربانية، هي التزكية، التي بدايتها التدارس والتدريس، والتعلم والتعليم، والتفهيم الذي يؤدي إلى التدبر في كلام الله تعالى، والاستشفاء بأدوية القرآن من العلل التي أصابتنا؛ ليستنير الطريق مرة أخرى، ولتتضح المعالم، وليبدأ المؤمنون مرة أخرى في تحقيق أسباب النصر.

وقد تزامن إخراج هذه الرسالة مع تلك الأيام الأخيرة من شهر رمضان، حيث عزم أهل الإيمان على بدء صفحة جديدة مع الله تعالى، يعاودون فيها السير بجد في طريق الله تعالى، طريق الربانية، وهم يرجون في وجه الله الكريم أن يكون قد منَّ عليهم بالمغفرة والرحمة والعتق من النار، ليخرجوا من رمضان وقد تأهلوا لتحمل مسؤولياتهم في الدعوة إلى الله تعالى.

وبعد:

فإننا نرجو في وجه الله الكريم أن يمنَّ علينا بقبول جهدنا الضئيل في هذه الرسالة المتواضعة، وأن ينفع بها قائلها وقارئها وكاتبها وناشرها، ونلتمس العذر من القارئ على ما قد يصادف فيها من أخطاء، ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا.

مسجد الهدي المحمدي

الجمعة ٢٧ رمضان ١٤٣٥ هـ

مقدمة

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ومَنْ يُضْلِل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمـــــران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾
[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعدُ...

فإنَّ أصدقَ الحديث كتابُ الله تعالى، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور مُحْدثاتُها، وكلَّ محدَثة بدعةٌ، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي، وأزواجِه أمهاتِ المؤمنين، وذرِّيته وأهل بيته، كما صليتَ على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد [(١)].

فإن الأيام والأحداث قد أخذت أهل الإيمان عما قد خُلقوا من أجله، وعن الطريق الموصل إلى الله تعالى، الذي كانوا يسبقون فيه، واختلت موازين السير إلى الله تعالى، وتحيَّرنا في الطريق، وأخذتنا الأحداث والأيام والعصبية والطائفية والحزبية إلى الغفلة عن طريقنا الذي لا محيد عنه، والذي لا ينبغي الغفلة عنه، وينبغي معاودة السير فيه وهو طريق الدعوة إلى الله تعالى، الذي

(١) حديث خطبة الحاجة رواه أبو داود (٢١١٨) من حديث ابن مسعود، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، والحديث صححه ابن العربي في عارضة الأحوذي (٢٧/٣) والذهبي في المهذب (١١٤٢/٣).

هو وظيفة النبي – صلى الله عليه وسلم – وأتباعه، كما قال جل وعلا: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف : ١٠٨].

وقد رأينا أن الطرق التي سلكناها في الأيام الماضية لم تسلك بنا إلى طريق الله تعالى، بل قد فقدنا مواقع كثيرة للدعوة، وأُصيب كثير من الدعاة في مصداقيتهم وتم تشويه صورهم، كل ذلك لضرب الدين والإسلام، ولإيقاف قواعده ولإيقاف مده، حتى لا تعلو كلمة الله، ﴿... وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف : ٨] ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة : ٣٣].

ومن ثم وجب التنبيه إلى العودة مرة أخرى إلى الطريق الأساسي الذي عنه تنبثق بقية السبل أو لمصلحته يجب أن تتوجه الجهود، ولا ينبغي أن يكون التوجه لطريق آخر مؤثرا على طريق

الدعوة، أو أن يكون الانشغال بهذه الأمور مؤثرا على مسيرة الدين، ورفع رايته الحقة بأساليبه التي اتبعها النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد وقعنا في الغفلة، ووقعنا في أعمال لم تقدم للدعوة شيئًا جديدًا، بل تأخرت الدعوة وفقدت مواقع كثيرة لها في هذه الأيام التي عشناها.

إن تأخر الدعوة وتأخر أسبابها إنما هو تأخر وتأخير لأسباب النصر، وهو الذي لا يجوز البتة لأحد الخوض فيه، ولا في التقصير في الأخذ بتلك الأسباب من أسباب النصر، لذلك لزم أن نأخذ أنفسنا، وأن نولي وجهتنا مرة أخرى الوجهة الصحيحة، وأن نعود أدراجنا إلى مواقع الدين الحق لترتفع رايته، ولتتحقق أسباب رفع هذه الراية، لا أن نستمر في هذا الاتجاه الكاسح، الذي قد أخذ القلوب وأخذ الأفئدة والألسنة والجوارح كلها بعيدة عن أن تنصب في النهاية للتعبد لله والدعوة إليه، منتظرين نصره سبحانه وتعالى. ذلك هو الهدف الأصلي الذي وجب العود إليه.

إن محاولة البعض الاشتغال بما يشتغل به المشتغلون اليوم من محاولة لرفع الدين بما يرون أسباب، ينبغي ألا يكون ذلك هو توجُه المؤمنين كلهم، فأين الدعوة؟! وأين العبادة؟! وأين العلم النافع والعمل الصالح؟! وأين بقية أسباب النصر؟! إذا توجه كل الناس إلى الكلام وإلى الخوض وإلى الخلاف الذي انتهينا إليه، بماذا ينتصرون فيما يريدون أن يسيروا فيه؟! إنهم إن قصروا في هذا الأساس عاد عليهم التقصير في كل وفي بقية أعمالهم، التي يظنون أنهم ينصرون بها دين الله تعالى، لأن الله تعالى يقول: ﴿ ... وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ... ﴾ [الحج : ٤٠].

إن الله تعالى لم يُنصر بالكلام ولا بالجدل ولا بالخلاف، ولا بالتقصير في الدعوة، ولا بفقد مواقع الدعوة، ولا بالاشتغال العام بالسياسة كما رأينا، فقد كنا في عهود قريبة -قبل سنتين- لم يكن هناك لا اشتغال بسياسية ولا بأحزاب ولا بغيره، وفك الله تعالى على المؤمنين وفرج عنهم شيئا ما، وهم يعلمون يقينا أنه لم يفرج عنهم سبحانه وتعالى بما نحن مشتغلون به اليوم، للأسف

الشديد، وإنما بما كنا مشتغلين به بما هيأهم الله له من العلم والعمل والدعوة والصبر والبذل في كل طرق حياتهم.

إننا نريد أن نعود وجهتنا مرة أخرى، وبكل تأكيد إلى ذلك الطريق الذي ما إن ابتدأه المؤمنون يومًا من عقود مضت حتى يسر الله لهم شيئًا من أحوالهم، وما تقصيرهم اليوم فيه وفقدهم تلك المواقع من مواقع الدين والدعوة إلا نذير سُوءٍ وَسَوْءٍ عليهم، يخشى علينا به أن نعاقب على ترك الشكر، وأن نعاقب على النكوص عن قضية التزكية والربانية، عن وظيفة النبي، عن مهمة الدعوة.

إنه مما يخيف – ويجب أن يخيف – المؤمنين هذا الحال الذي وصلنا إليه، فبدلاً من أن نشكر نسينا النعم، وبدلا من تأتلف القلوب تفرقت وتحزبت، وبدلاً من أن تكف الألسن وتذكر ربها وتعود إلى قرآنها وقعت في أعراض بعضها البعض، إلى آخر السوء الذي نحن فيه، ومن ثَم وجب التنبيه، ولزم الرجوع قولاً وعملاً.

لذا لزم التنبيه على العود إلى الله تعالى، العودة إلى الربانية، التي أمر الله تعالى بها المؤمنين المتقين، وبين لهم أن تلك وظيفة النبي - صلى الله عليه وسلم - كما قال تعالى: ﴿ ... وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩].

فبيّن لهم لزوم أن يكونوا ربانيين، لا أن يكونوا على هذا الحال السيئ من الاختلاف والفرقة والجدال والكلام فيما لا يعني، وفيما لا يفيد آخرة ولا دنيا، لأنه إذا لم يرد الله تعالى بهم خيرا منعهم العمل، وأوتوا الجدل والكلام الذي يترتب عليه الخلاف والفرقة والتشاحن والمذهبية والعصبية والحزبية، والخروج في نهاية الأمر عن طريق الدعوة الذي ينبغي أن يسلكه الجميع إلى الله تبارك وتعالى، متسلحين بهذه الربانية، متصفين بوظيفة النبي - صلى الله عليه وسلم - في الدعوة إلى الله تعالى.

الفصل الأول: طريق الربانية

بعد أن رجعنا إلى وظيفتنا الأولى، وظيفة الدعوة إلى الله تعالى، نبين ملامح طريق الربانية، والتي كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران : ٧٩] فإن من حقق ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم.

فأول الطريق هو تعلم الكتاب وتعليمه ومدارسته، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ، وكما قال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، فالتزكية هي مقصود العلم والتعلم، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم ليزكّي هؤلاء الناس ويطهّرهم ليسيروا إلى الله تعالى، فيتحقق لهم النجاة في الدنيا والآخرة باختصار.

وطريق التزكية هو طريق العلم والعمل، والعلم الأول هو كتاب الله تعالى تعليمًا وتعلمًا ودراسة، و أن يكون ذلك عن طريق تعلم الكتاب وتدريسه ومدارسته على طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في التزكية.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ ... **وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ** ﴾ بما تعلمتم حتى صرتم إلى موقع التعليم؛ لأنه لما قال: ﴿ ... **بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ** ...﴾ دل على أنه قد سبق تعليمهم أن كانوا متعلمين. وقد قرئت الآية (تُعَلِّمُونَ) أو (تَعْلَمُونَ) ، فلا بد أن يكون المرء - على أقل تقدير - متعلما لهذا الكتاب، ليسلك سكة الربانية وطريقها الأول والأخير.

وتعلم الكتاب يلزمه تعلم السنة؛ فالسنة هي الوثيقة التي قد شرحت الكتاب وبينته، فأطلقت وقيدت، وعممت وخصصت، إلى آخر تلك العلاقة بين القرآن والسنة؛ إذ هما معًا الوحي الذي نزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي كانت وظيفته تعليم المؤمنين وتزكيتهم، كما قال : ﴿ **لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى**

ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران : ١٦٤] فيعلمهم - صلى الله عليه وسلم - هذا القرآن وتلك الحكمة، وهي تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم لهذا القرآن، وهي السنة، تلك إذن هي الوظيفة التي لا خروج عنها، فبالتلاوة وبتعلم القرآن والسنة، وبصفات النبي وشمائله يتزكون، ويزيد على ذلك أن يزكيهم هو بنفسه - صلى الله عليه وسلم - كما سنبين ذلك، إن شاء الله تعالى.

ولا يصلوا إلى الربانية إلا أن تكون البداية بالتعلم كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - مبينًا معالم هذا الطريق: (**خَيرُكُم مَن تَعلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَه**)[٢]، وقوله: (**إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا**)[٣] ، ومن

(٢) أخرجه البخاري (١٩١٩/٤ ، رقم ٤٧٣٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٨٣/١ ، رقم ٢٢٩)، وقال الحافظ العراقي في كتابه الباعث على الخلاص ص٢٨: له طرق يقوّي بعضها بعضًا. ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ : دَخَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الْمَسْجِدَ وَقَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَقَوْمٌ يَتَذَاكَرُونَ الْفِقْهَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : كِلاَ الْمَجْلِسَيْنِ إِلَى خَيْرٍ ،

ثم كان قوله كذلك: (الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ) [٤] لا يعني أن يكون هذا الذي يحفظ القرآن ويتلوه كثيرا فقط، وإنما هي التلاوة لتعليمهم الكتاب والحكمة وليزكيهم كما قال: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ...﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، وقدم التزكية على تعلم الكتاب والحكمة؛ وكأن المقصود من تعليم الكتاب والحكمة أن يتزكى بها المرء إلى الله تعالى، والتزكية هي التطهير وتصفية النفس، حتى يكونوا أهلا لمجاورة الله تعالى في جنته في الآخرة، وأن يكونوا أهلا لحمل هذا الدين في الدنيا، إذ أن هذه الدعوة دعوة طاهرة بيضاء نقية صافية، تستوجب ليسير بها الناس أن يكونوا على هذه الصفات من الصفاء وسلامة القلب، وحسن التأسي بالنبي صلى الله عليه

أَمَّا الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ ، وَهَؤُلَاءِ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ وَيَتَعَلَّمُونَ ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا ، وَهَذَا أَفْضَلُ فَقَعَدَ مَعَهُمْ).

(٤) أخرجه البخاري (١٨٨٢/٤ ، رقم ٤٦٥٣) ، ومسلم (٥٤٩/١ ، رقم ٧٩٨)، ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ فَلَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ).

وسلم، واستقامة السير على طريقة جل وعلا، مع الوضوح والبيان والتقوى والعمل الصالح، هذه الأولى.

والثانية: التي بينها النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما بين أن خيركم من تعلم القرآن وعلمه، هي تدارس القرآن والعمل به ، وقد بيّن النبي طريق ذلك في قوله: (**مَا اجْتَمَعَ قوم في بيت من بيوتِ الله يَتْلُونَ كتابَ الله تعالى ، ويتَدَارَسُونَهُ بينهم إِلا نَزَلَتْ عليهم السكينةُ ، وَغَشيَتهم الرحمةُ ، وحَفَّتهمُ الملائكةُ ، وذَكَرهُمُ اللهُ فيمن عِندَهُ**)[٥]. وهي الطريق التي بدأ الصحابة رضوان الله عليهم منها؛ لفهم معنى الكتاب علمًا وتعلمًا وتدارسًا، ثم بعد

---

(٥) أخرجه مسلم (٤/٢٠٧٤ ، رقم ٢٦٩٩) ، ولفظه (عَنْ أبي هريرة – رضي الله عنه – :قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : مَن نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبة من كُرَب الدنيا نَفَّسَ اللهُ عنه كُربة من كُرَب يوم القيامة ، ومن يَسَّرَ على مُعْسِر، يَسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخِرَةِ ، وَمَن سَتَرَ مُسلِما سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، واللهُ في عَونِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عَونِ أخيهِ ، وَمَن سلكَ طريقا يَلْتَمِسُ فيه عِلْما سَهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طريقًا إلى الجنَّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قوم في بيت من بيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ تعالى ، ويتَدَارَسُونَهُ بينهم إلا نَزَلَتْ عليهم السكينةُ ، وَغَشيَتهم الرحمةُ ، وحَفَّتهمُ الملائكةُ ، وذَكَرهُمُ اللهُ فيمن عِندَهُ ، ومَن بطَّأَ به عَملُهُ لم يُسْرِعْ بِهِ نَسبُهُ).

ذلك العمل بهذا بما أنزل في هذا الكتاب. فقد كان الصحابة كلما نزل خمس آيات أو عشر آيات كانوا لا يتعدونها حتى يعلموها ويتدبروها، ثم يقومون بالعمل بها، فإن كتاب الله تعالى إليهم كان على هذا النحو، رسائل الله تعالى إليه، هو يكلمهم ويكلمونه سبحانه وتعالى، وصلتهم تلك الرسائل من الله تعالى فتدبروها ليلهم، ثم قاموا يعملون بها ويدعون إليها، وتلك حالهم التي انتصروا بها وبدءوا بها، وانتهوا إليها، في ثلاث وعشرين سنة نزل القرآن على هذا الحال؛ ليكون حياة المؤمنين وحياة النبي مرتبطة به من أول يوم إلى آخر يوم فارق فيه الدنيا صلى الله عليه وسلم.

إن الربانية لا بد أن تبدأ من هذه الطريق التي ابتعث الله بها نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالتلاوة والعلم والعمل والتزكية، وهي طريق الصحابة التي أوصلتهم للدرجة العالية في الدنيا، وهي كذلك سبيل الوصول للدرجات العلا التي بينها الله تعالى على لسان النبي في الجنة لأصحاب القرآن كما قال: (اقْرَأْ وَارْتَقِ،

وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا)[٦].

هذه هي المعاني الأولى التي لا بد أن يضعها المرء في عقله وذهنه، طالبًا من الله تعالى أن يسلك به في عداد متعلمي كتابه والمتفقهين فيه والمتزكين به، والدارسين له. فالتعلم أن يتعلم الكتاب وأحكامه، والدراسة أن يعلم وجوه المعاني والدلالات التي تسوقه إلى مقاصد هذا الدين وغاياته، التي بها يتقرب إلى الله تعالى، والتي بها يصلح بعد ذلك أن يكون معلما ناشرا لدعوة الحق، رافعا لراية الكتاب والسنة، منتشرا بها كما كان النبي يزكي بها، ويعلم بها، ويتلوها على الناس وحينئذ يكونون عالمين معلمين لهذا الكتاب، وصاروا أهلا لدعوة غيرهم، وتزكيتهم

(٦) أخرجه أبو داود (١/ ٥٤٧ ، رقم ١٤٦٦)، والترمذي (٥/ ١٧٧ ، رقم ٢٩١٤)، وقال: حديث حسن صحيح. ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»).

وتطهيرهم، فتنتشر بذلك بركة القرآن الكريم؛ ويكون سبب عودتهم لطريق الله، ورجوعهم عن ما هم فيه من طرق لا تسلك بهم إلى الله تعالى.

تلك هي سبيل الربانية، وتلك هي وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو طريقها الذي لم يذكر القرآن طريقا للربانية غيره.

لذلك قال العلماء أن سبيل المعرفة بالله جل وعلا هو كلامه، ليس بين الناس وبين الرب سبحانه وتعالى اليوم إلا هذا الكلام، الذي يسره الله جل وعلا للناس حتى يستطيعوا أن يقرءوه ويفهموه، ومن ثم أمرهم بالتدبر فيه، والتبصر في آياته، وبين لهم معانيه البيان التام ليتحققوا بالفوز في الأولى والآخرة؛ لترتفع رايتهم، وتزكو نفوسهم، ويعلو أمرهم ودينهم، وينتصروا بتلك الأسباب التي أخذ بها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

فتلك إذن قضيتنا، قضية الدين والدعوة، قضية الأولى والآخرة، وإن كل شيء يعطل عنها إنما هو سبب من أسباب

الفشل، وطريق إلى الفرقة والاختلاف، وإن كل أعمال المؤمنين - كما ذكرنا - لا يكون لها النصر والرفعة براية الدين وراية الإسلام إلا بأن تنطلق من هذه القاعدة، من قاعدة الدعوة، من كونها وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ...﴾ [يوسف : ١٠٨] وإن سكة الربانية هي الأصل الذي كان عليه المؤمنين من المهاجرين والأنصار، وتلك الدعوة التي مهدها الله تعالى ورفعها لهم، ومن ثم كان لزاما علينا أن نعود إلى ذلك شرحا وتأصيلا وتفيهما؛ حتى يفهم المرء طريقه إلى ذلك.

أولًا : التحقق بأوصاف القرآن الكريم

إن تعلم القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم هو الأساس في طريق الربانية، وذلك لأن الله تعالى قد وصف كتابه بأنه شفاء، وأنه هدى، وأنه نور، وأنه روح، وأنه بصائر، وأنه مبارك، ثم طلب من المؤمنين بعد أن عرفوا هذه الصفات أن يأخذوا من القرآن بحظهم فيها؛ ليكون ذلك سبيل تزكيتهم

وتطهيرهم، وليكون ذلك سبب حياتهم، وليكون ذلك سبب نصرهم ورفعتهم، عندما يطبقونه التطبيق الحي، الذي طبقه النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ...**﴾ [الأحزاب : ٢١]، وتمثل ذلك فيه - صلى الله عليه وسلم - كما قالت عائشة رضي الله عنها: (**كَانَ خُلُقه القُرآن**) [٧]، فلا شك أن تطبيقه لذلك الذي أمره الله تعالى به هو التطبيق اللازم لنا، حتى تتم هذه التزكية التي أمر الله تعالى بها، والتي أرسل بها رسوله ونزل بها كتابه.

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**أَبْشِرُوا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هذا القرآن سببٌ**

---

(٧) أخرجه مسلم (١/٥١٢ ، رقم ٧٤٦)، ولفظه (قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فقالت : ألست تقرأ القرآن؟ قال قلت : بلى. قالت: فإن خلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان القرآن).

طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتَمَسَّكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً)[٨].

لذلك كان النظر في معاني القرآن الكريم التي بينت أسماء القرآن وأوصافه، وبينت حقائقه أو شيئا منها، هو السبيل ليكون المرء على بينة من أمره في طريق الربانية.

الحياة بروح القرآن

وأول الأوصاف التي نتكلم عنها في القرآن هو الروح؛ وذلك لنتبين أن هذا القرآن هو سبيل الربانية، ونذكر عدة مواضع تبين ذلك المعنى.

الأول: قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ...**﴾ [الإسراء : ٨٥] والروح ما يحيا به البدن، فلا

---

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/١٢٥ ، رقم ٣٠٠٠٦) ، والطبراني (٢٢/١٨٨ ، رقم ٤٩١) ، وابن حبان (١/٣٢٩ ، رقم ١٢٢) . وقال الهيثمي (١/١٦٩) : رجاله رجال الصحيح . ولفظه (عَن أبي شريح ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : أَبْشِرُوا أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً).

يكون المرء حيًّا إلا بها، أي تدور حياته عدمًا ووجودًا عليها، فإن دخلته الروح كما ذكر في الحديث: (ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوح) [٩] وفي قوله تعالى: ﴿... فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ...﴾ [التحريم : ١٢] يحيا البدن، فإن فقد تلك الروح مات.

ودلت الآية على أن الروح -بهذا المعنى- من أمر الله ومن شأنه؛ تعظيما له، وعلما لا يحيط بكيفيته وما فيه إلا هو سبحانه وتعالى.

الثاني: قول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن

---

(٩) إشارة إلى ما أخرجه البخاري (١١٧٤/٣ ، رقم ٣٠٣٦) ، ومسلم (٢٠٣٦/٤ ، رقم ٢٦٤٣)، ولفظه (عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الصَّادِق الْمَصْدُوقُ، قَالَ: إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ).

جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ...﴾ [الشورى : ٥٢ - ٥٣]

وفي هذه الآية سمى المولى جل وعلا الوحي الذي أوحى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم روحًا. ولما كانت الروح -كما بينا في الآية الأولى- ما يحيا به البدن، فالقرآن هو الروح الذي تحيا به القلوب في الثانية، وأنه إذا فقدته القلوب فقدت حياتها.

والمعنى الثاني في الآية: أن الروح التي تنبني عليها الحياة الحقيقية في الدنيا والآخرة مع النبيين والصديقين والشهداء **تكون بدراية الكتاب وبلزوم الإيمان**، وأنه لا روح ولا حياة حقيقية عند عدم الدراية بالكتاب ولا بالإيمان فالروح هي معرفة الكتاب، واستقرار الإيمان بهذا الكتاب في القلب، وعلى قدر ما تأخذ من هذا الكتاب تأخذ من هذا النور ﴿ **... وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا ...**﴾ ، وقول الله تعالى : ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ...**﴾ [الأنعام : ١٢٢].

فبقدر ما تأخذ منه تأخذ من هذا النور، وتلك الروح تكون حياتك عند الله تعالى، وبقدر ما يحيا قلبك ويكون مؤهلا لتلقي العلوم الإلهية والأحكام الشرعية، وهذه الفتوحات الربانية التي تأخذ بالمرء إلى الله تعالى في طريق الربانية، وكلما زادت هذه الروح وزاد هذا النور في القلب زادت حياة القلب، واشتدت قوته وصلابته، وصار متمكنًا من السير إلى الله تعالى بفضله ونوره وحفظه جل وعلا.

فهذا الكتاب إذن هو روح هذه الأمة وحياة أفرادها فردًا فردًا، **وكلما حل في المرء من هذه الروح حل فيه ذلك النور**، وهذا النور هو الأساس الذي عليه تنتشر بركة القرآن في الدنيا، وترتفع رايته، وأنه على قدر ما يأخذ كل أحد من هذه الروح على قدر ما يحيا قلبه، وتنتعش نفسه وتزكو صفاته، ويستضئ له طريقه، ويكون حيًّا سائرًا إلى الله تعالى؛ لأنه على قدر هذا الروح على قدر هذا النور الذي يأخذه، لذلك قال: ﴿ **... وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ ...**﴾ [الشورى : ٥٢].

وهو كذلك سبب النجاة في الآخرة، فعلى قدر ما أخذوا من هذا الروح وعلى قدر ما وصلهم من ذلك النور، على قدر ما يعبرون الصراط يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الحديد: ١٢].

فإذا ما نظرنا إذن لهذه الحال الذي نحن فيها من التخبط والحيرة، وهذا التيه والظلمة، وإلى عدم التمكن من النظر والسير الصحيح إلى الله تعالى، فإنه لا بد أن نعلم أن ضعف الروح، ضعف القرآن، ضعف الوحي، هو السبب الأول - طردا وعكسًا كما يقولون - في هذا الحال من الظلمة وقلة النور وضعف التبصر في السير إلى الله تعالى، لأن نصيبهم من القرآن أصبح قليلاً، فإذا بالمرء ضعيف القلب، ضعيف الحياة، ضعيف السير إلى الله تعالى، سرعان ما يصيبه الكسل والوهن، وتؤثر فيه المعاصي والشيطان والهوى، لأن النور

والروح لم يحلا بعد في تلك الأمة، لم يحلا بعد في هؤلاء المتحمسين إلى الدرجة التي تحيى بها القلوب، وتستنير بها الطرقات السالكة إلى الله تعالى.

وبالعكس، فكلما ازداد من تلك الروح حيا قلبه، وارتفعت حياته ونفسه، وزكى فؤاده؛ واستطاع السير إلى الله تعالى، وأيضًا كلما ازداد من الروح ازداد هذا النور، فصار طريق المرء مستنير إلى الله تعالى، لا يتعثر فيه؛ لأنه يسير بهذا النور، كما ورد عن النبي في طلبه من ربه سبحانه وتعالى: (**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي بَصَرِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا وَعَنْ يَمِينِي نُورًا وَعَنْ يَسَارِي نُورًا وَفَوْقِي نُورًا وَتَحْتِي نُورًا وَأَمَامِي نُورًا وَخَلْفِي نُورًا وَاجْعَلْ لِي نُورًا**)[١٠] وعندئذ ترتفع الحيرة ويرتفع الارتباك والضلال، وعدم

---

(١٠) أخرجه البخاري (٥/٢٣٢٧ ، رقم ٥٩٥٧) ، ومسلم (١/٥٢٩ ، رقم ٧٦٣)، ولفظه (ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي بَصَرِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا وَعَنْ يَمِينِي نُورًا وَعَنْ يَسَارِي نُورًا وَفَوْقِي نُورًا وَتَحْتِي نُورًا وَأَمَامِي نُورًا وَخَلْفِي نُورًا وَاجْعَلْ لِي نُورًا).

الفهم، وعدم السير إلى الله، والتردد والتقهقر والاختلاف، والفرقة والمصائب النازلة.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ ﴾ [النحل : ٢] والمعنى **أنه لا حياة للمرء إلا أن يعلم أن ربه سبحانه وتعالى لا إله إلا هو**، وهو معنى توحيد الله تعالى وتقواه. فإذا لم يحقق المرء التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، في خوفه ورجائه وتوكله وثقته ويقينه وإقباله ومحبته لله جل وعلا فإن نصيبه من الروح والحياة والنور يكون قليلًا، بقلة معرفته بالله تعالى، وبقلة توحيده له. ولا يوحد ربه ولا يعرفه إلا بأن يعرف أسماءه وصفاته سبحانه وتعالى، وأن يدعو ربه سبحانه وتعالى بها، وأن يوحده بها، وأن يذكره بها جل وعلا، وحينئذ يعرف ربه سبحانه وتعالى ويحبه، وإذا أحبه أقبل عليه، وإذا أقبل عليه سلك طريق التقوى إليه، واستضاء له طريقه واستنار، وحفظ له طريقه، واستطاع السير فيه إلى الله جل وعلا.

الرابع: من معاني الروح الذي نشير إليها، قال فيه المولى سبحانه وتعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ [غافر : ١٥]، فهذا الوحي الذي يُوحى به، هذه الروح، إنما هو **للإنذار باليوم الآخر** ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ . وهو المعنى الذي تسارع القلوب به إلى ربها وتخشاه وتخافه، وتعمل لحساب ذلك اليوم، يوم أن يلاقوا ربهم، ويسألهم عما قدموا وأخروا، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

إن هذا اليوم العظيم إنما يبدأ بموت المرء وسيره في برزخ الآخرة إلى الله تعالى، وإن حياته في هذا البرزخ لتتوقف على إيمانه بهذه الروح التي أعلمته باليوم الآخر، وإن الإيمان باليوم الآخر مرتبط في الكتاب والسنة بالإيمان بالله تعالى؛ لدلالة هذين على روح المرء وحياة قلبه ونوره وعلو ذلك، وعلى أثره في ثبات المرء وسيره إلى الله تعالى، وعدم التقهقر أو التكاسل في هذا الطريق، أو عدم الرجوع عنه، أو عدم الاستقامة عليه.

فكلما علم المرء بموقفه من اليوم الآخر وأنه روحه وحياته سار إلى الله تعالى خائفًا أن يبدأ يومه الآخر من ليلته أو من غده، فإن لم يكن خوفه من اليوم الآخر مانعا له، كان علمه بالحساب والموقف والقبر وعذابه وسؤاله ومنكره ونكيره، وعلمه بالبعث والنشر والجنة والنار والميزان والصراط والصحف، وما تشيب له الرؤوس، وما يقع من هذه الأموال والمحن، كل ذلك ليسارع في السير إلى الله؛ لذلك تكرر الوعد والوعيد في كتاب الله تعالى والسنة لمن آمن بالله واليوم الآخر قال: لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، أو من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفعل كذا وكذا (١١).

---

(١١) تكرر في الحديث النبوي أن النبي صلى الله عليه وسلم ربط بين العمل الصالح والإيمان بالله واليوم الآخر، فمن ذلك ما أخرجه البخاري (٥/٢٢٤٠ ، رقم ٥٦٧٣) ، ومسلم (١/٦٩ ، رقم ٤٨) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ).

بركات تدبر القرآن

القضية التالية في القرآن هي قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ...﴾ [ص : ٢٩] وهنا أمران نشير إليهما:

الأول: أن القرآن هو سبيل رجوع البركة. فالبركة التي يظن المرء اليوم أنها قد مُحقت، وفلم يعد هناك بركة في يوم ولا ليلة ولا ساعة، ولا جهد ولا وقت، ولا مال ولا ولد، ولا صحة ولا غيره، وإن سبيل رجوع البركة ونمائها وزيادتها إنما هو ذلك القرآن المبارك. فكلما وُجد هذا القرآن المبارك في مكان في شخص في بيت في مسجد في حي في غيره حلت البركة، بتلاوته وتدبره، حتى مجرد التلاوة؛ فإنها لها نصيبها من البركة، كما ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - : (لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ) [(١٢)] وكل حرف بعشر حسنات.

---

(١٢) أخرجه الترمذي (١٧٥/٥ ، رقم ٢٩١٠) وقال : حسن صحيح. والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٢/٢ ، رقم ١٩٨٣) . ولفظه (عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

الثاني: أن التدبر هو طريق التعلم والتزكية، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ...﴾ [ص : ٢٩]؛ فإن كانت تلاوة القرآن وحفظه – ولا شك- سبيل رجوع البركة، فإن قضية التدبر هي أهم القضايا الموصلة لتحقيق التعلم والعلم والعمل والتزكية ، في طريق الربانية.

وذلك لأن التدبر ينبني عليه التذكر كما قال:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] والتذكر سبيل للإبصار في طريق الله تعالى، والسير إليه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف : ٢١] فبعد أن مسهم هذا الطائف من الشيطان تذكروا بعد التدبر ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ..﴾ [ص : ٢٩]

مَسْعُودٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ).

فإذا تذكروا، اتعظوا وفهموا وتبصروا الطريق مرة أخرى فعادوا بقوة إلى السير فيه كما ذكر الله تعالى: ﴿ ... هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٣]، والبصائر جمع بصيرة، والبصيرة: أي الآية المبصرة المضيئة أي: قد جاءكم من الله تعالى آيات مضيئة، تبين للعين النور الذي تستطيع أن تسير فيه، هذه الآيات المضيئة قال الله تعالى عنها: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام : ١٤] فتبصرت قلوبهم، وانفتحت أعين هذه القلوب مرة أخرى لطريق الله والرجوع إليه.

مفهوم التدبر

والقضية في التدبر في كلام الله تعالى قضية سهلة وبسيطة، وليست معقدة كما يُظن، وذلك لأن التدبر شيء والتفسير شيء آخر. فالتفسير له قواعده وأصوله وعلومه ومشايخه وعلماؤه. أما التدبر فهو شيء زائد على التفسير، ويتطلب فقط معرفة المرء

التفسير البسيط لمعاني الآيات حتى لا يخرج ولا يشط عن المعاني، وبعدها فإن التدبر فيما يتعلق بهذه الآيات سهل لكل أحد من أهل تلك المجالس التي ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - عنها: (**مَا جَلَسَ قَومٌ فِي بيتٍ من بُيوتِ الله ...**) [١٣] فلم يختص بها المفسرين، وإن كان القائم عليها ينبغي أن يكون على علم بالتفسير وأحواله، وإنما هؤلاء الذين يسمعون هذا التفسير يسهل عليهم -إن شاء الله تعالى- التدبر العام بما يخصه في هذه الآيات.

---

(١٣) أخرجه مسلم (٢٠٧٤/٤ ، رقم ٢٦٩٩) ، ولفظه (عَنْ أبي هريرة - رضي الله عنه - :قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : مَن نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبة من كُرَب الدنيا نَفَّسَ اللهُ عنه كُربة من كُرَب يوم القيامة ، ومن يَسَّرَ على مُعْسِر، يَسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخِرَة ، وَمَن سَتَرَ مُسلِما سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخِرَة ، واللهُ في عَونِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عَونِ أَخيهِ ، وَمَن سلكَ طريقا يَلْتَمِسُ فيه عِلْما سَهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طريقًا إلى الجنَّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قوم في بيت من بيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ تعالى ، ويتَدَارَسُونَهُ بينهم إلا نَزَلَتْ عليهم السكينةُ ، وَغَشيَتهم الرحمةُ ، وحَفَّتهمُ الملائكةُ ، وذَكَرهُمُ اللهُ فيمن عِندَهُ ، ومَن بطَّأَ به عَملُهُ لم يُسْرِعْ بِهِ نَسبُهُ).

والتدبر يعني النظر في مآلات الآيات وعواقبها، سواء فيما يتعلق بنفسه أو فيما يتعلق بمجتمعه، مثل الآيات التي أمر الله تعالى فيها بالنظر للمجتمع: أولم يسيروا فينظروا كيف كان كذا وكذا مما ذكر الله، فينظر المرء في هذه الآيات وفي عواقبها في نفسه، بما تشير إليه وبما تأمره، وبما تنصحه، وبما تعظه، وبما تعلمه، وموقفه هو منها، كيف اتعظ وكيف سار، وكيف أخذ، وكيف ائتمر وامتثل، وكيف انتهى، وكيف أقبل، بمعنى أن يقيس نفسه بهذه الآيات.

فينظر المرء في كل آية، فيعلم موقعها من نفسه، وأثرها على قلبه وأعماله، إن كانت متعلقة بنفسه، وإن كانت متعلقة بأمر الله تعالى في كونه وعاقبته، فالتدبر أن ينظر في عواقب الآيات ليرى موقعه منها، سواء كان يطبقها أو يخالفها، وليرى كذلك رتبته من هذه الآية. هذا هو مفهوم التدبر مختصرًا.

لذلك كان معنى قوله تعالى: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ... ﴾ أي: ليدبروا كل آية من آياته، وسورة من سوره، وما نزل من كلام الله، فإن الله تعالى يكلم كل أحد بهذا الكلام، ويخص به كل أحد

، فكما تدعو الله تعالى وتظن أنك تدعوه وحدك، فكذلك التدبر بأن تظن أن كلام الله تعالى لك اختصاصًا ، قال الله جل وعلا: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠].

يقول أحدهم: نظرت في كلام الله فإذا فيه ذكر المؤمنين المتقين، وذكر الكفار المكذبين، فرأيت نفسي لست من هؤلاء، وإن شاء الله لست من هؤلاء، فإذا ذكري الذي ذكره الله تعالى لي في القرآن وتبينته: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة : ١٠٢].

التذكر هو ثمرة التدبر

وإن هذا التدبر إنما ينبني عليه التذكر كما قال: ﴿... وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ، فإذا نظر المرء في هذه الآيات نظر التدبر، بعد أن تعلم ودرس وتدارس فيها نظر هذا النظر التالي وهو التذكر؛ فيكون هذا التدبر سبيله إلى فهم ما يكلمه اله تعالى به،

وإلى المسارعة بالتحقق بهذه المعاني التي يخاطبه بها شخصيًّا وإلى الموعظة التي قد سيقت إليه في الآية. بمعنى: سيق إليه الأمر، سيق إليه النهي، سيق إليه العلم بالله تعالى والإقبال عليه، سيقت إليه موعظة الآخرة، سيقت إليه موعظة الصلاة، موعظة الزكاة، سيقت إليه موعظة الخشوع، موعظة الخضوع، موعظة الإخوة، موعظة التواضع، موعظة تذكر الآخرة، موعظة الموت، موعظة الخاتمة، موعظة السابقة، موعظة السابقين، موعظة اللاحقين، موعظة الغيب، كل هذه الأمور سيقت إليه، بدأ يفهم، بدأ يتدبر تلك الآيات ، فإذا ما تدبروا تذكروا، فإذا ما تذكروا أبصروا، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢١] فساروا إلى الله تعالى في ذلك النور بهذه الحياة التي منحوها، وتلك القوة التي أعطوها من الله تعالى[١٤].

---

(١٤) ضرب بعض المشايخ مثلاً لهذا التدبر الذي نتكلم عليه، وهذا التبصر الذي انبنى عليه بقصة هذا التاجر الغني، الذي فقد شيئا من ماله يوما ما، فذهب

إلى عالم وقال له: أريد الاقتراض من البنك مالا لأنني قد وقعت بي ضائقة، فلم يفته العالم بالرخصة؛ لأنه يعرف أنه يعيش حياة الترف، وما يريد الاقتراض بالربا إلا ليبقى على هذه الحياة المترفة، وكان عنده من الممتلكات ما يمكن أن يبيع شيئا منها ليفك ضائقته، فلم يعطه العالم فتوى بأن يقترض بالربا. ثم جاء العالم أجير لا يملك قوت يومه وقد نزلت به النوازل، يريد أن يقترض شيئا، وهو يعلم حاله، فرخص له أن يقترض بالربا، ثم بعد عدة أيام قابل العالم الأجير المسكين، وظن أنه قد ذهب واقترض وحل مشاكله، فإذا به قد ازدادت أحواله سوءًا، ولم يفعل شيئًا، ولم يقترض بالربا، فلما سأله العالم عما فعل، قال: لم أقترض شيئًا، لم أستطع، قال: لقد تبصرت في هذه الآيات : ﴿ **ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ** ...﴾ [البقرة : ٢٧٥] ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ** ﴾ [البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٨] فإذا به وهو أجير مسكين، علم أنه إن أخذ الربا أخذ حديدًا حارًّا من نار جهنم، ووضع في يده جمرًا من نار، وعلم أنه يحارب الله ورسوله، وعلم ما سينتظره في الآخرة من ذلك، وما سيعود عليه من نار تحرقه في الدنيا قبل الآخرة، وأنه يضيع ماله وأهله، ويسعى في خراب بيته، فامتنع عن الأخذ بالرخصة لأنه تدبر في هذه الآيات واستبصر، وهو أجير مسكين ليس بعالم ولا مفسر، ولكنه علم هذه الحالة من تدبر وتبصر تلك الآيات .

فبداية الطريق هي مجالس القرآن[١٥]، فهي طريق التدبر، وطريق الدعوة، وتعليم هذا الأمر ونشره، كما أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم، بتلك الوظيفة، التي تنتهي إلى التزكية، وإلى تلك الربانية، التي ينبغي ويجب أن نعود إليها، ولا يمكن العودة لذلك النصر وأن ترتفع الراية إلا بتلك الربانية، وبتلك التزكية، وبتلك البصائر، التي تبصر الناس بطريقهم إلى الله، وذلك التذكر الذي يعود عليهم بالتبصر، وذلك التدبر الذي أمر الله تعالى به وشدد عليه.

---

(١٥) وكانت هذه مهمتنا منذ زمان بعيد، في دروس شرح الأسماء الحسنى على هذا المعنى من معاني التدبر في كلام الله؛ كما قال تعالى: ﴿ ... لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ... ﴾ [ص : ٢٩] ليعرف الناس ربهم سبحانه وتعالى أولاً ، فكانت مجالس الأسماء الحسنى من هذا الباب، أو من هذا المنطلق. وندعو الله تعالى أن يهيأ لنا مجالس تكون أشمل للقرآن الكريم كله، أن نجعل مجلسا للتفسير وللتدبر في تلك الآيات؛ لتكون تبصرة للناس إلى سلوك سبيل الربانية، وإلى سلوك سبيل التزكية، المتعلق بالقرآن الكريم في تعريفنا بالله جل وعلا، والإقبال عليه، إن شاء الله تعالى.

بصائر آيات القرآن

وهي قول الله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٠] وقوله جل وعلا: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ...﴾ [الأنعام : ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿ ... هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٣].

وبصائر جمع بصيرة، والبصيرة بمعنى المضيئة: ﴿ ... وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ...﴾ [الإسراء : ١٢] ، يعني: مضيئة، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً ...﴾ [النمل : ١٣] أي: مضيئة أي مُبَصِّرَةً لهم بطريق الله تعالى، منيرة لهم طريقهم إلى الله تعالى ﴿ ... قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [النمل : ١٣]. فالبصائر هي الآيات المضيئة من الله تعالى التي تبين لك حقائق هذا الوجود، وتبين لك الطريق السالك إلى الله تعالى عندما تختلف عليك الطرق ، تأتيك هذه الآية البصيرة أي مضيئة، فيقع نورها على الأشياء، فتراها الأعين وتبصرها، فأنت

في الظلام لا تستطيع أن ترى الأشياء، ولا أن تقرأ، فإذا جاءتك الإضاءة، تبصرت طريقك فعرفت أين تقف، وكيف تسير، وماذا تصحب، وماذا تحذر في سيرك، فهذه البصائر قد أضاءها الله تعالى إلينا فلم يبق حجة لأحد.

وهذه البصائر إنما تبصرها القلوب لا الأعين، لذلك قال تعالى: ﴿ ... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج : ٤٦] ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف : ١٠٥] فكان الإبصار المطلوب هنا إنما هو إبصار القلب، وإبصار القلب إنما هو مترتب على التدبر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] فكل آية إذا تدبرتها لا بد أن تكون لك تلك البصيرة الموضحة.

وكما ذكرنا، فإن التذكر مبني على التدبر :﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] فإن تذكروا

أبصروا، واستضاء لهم الطريق وأنارت قلوبهم بتلك الآيات التي بينها الله تعالى وأعطاها لهم، فإذا أبصروا اعتبروا ، لذلك قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران : ١٣] فقط لأولي الأبصار !

والاعتبار هو: أخذ العبرة والنظر، وأن يخشع القلب، وأن ترتدع الجوارح، وأن تنقمع الشهوات، كل ذلك لأنه قد اعتبر، فأصاب قلبه ما يكون سبب نجاته عند الله تعالى، لأنه أصبح من المتعظين المعتبرين الذين جاءتهم الموعظة والعبرة، فاستقرت في قلوبهم. وانظر إلينا وإلى كم العبر والعظات التي نسمعها والتي قال المولى فيها: ﴿ ... فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر : ٢] فهل اعتبرنا ؟ إن الاعتبار إنما هو لأولئك المتبصرين الذين استضاءوا بتلك الآيات، التي بينها الله تعالى طريقا للربانية، تدبرًا وإبصارًا وتذكرًا، ومن ثم نعى الله تعالى على الناس جميعا في نهاية القول فقال: ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ ﴾ [الأنعام : ١٠٤] وقد سلكنا سكة العمى

في هاتين السنتين الماضيتين، بعد أن فرج عليهم شيئًا - بفضل الله تعالى – بعد سيرهم في طريق الدعوة الصحيح ، عادوا وتنكبوا الطريق؛ ليعلموا أن الله قد نصرنا بغير ما نسير فيه اليوم، بل قد نصرنا بعكس ما نحن فيه اليوم !

ثانيًا: المرابطة في المسجد

وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (**مَا اجْتَمَعَ قوم في بيت من بيوتِ الله يَتْلُونَ كتابَ الله تعالى ، ويتَدَارَسُونَهُ بينهم إِلا نَزَلَتْ عليهم السكينةُ ، وَغَشيَتهم الرحمةُ ، وحَفَّتهمُ الملائكةُ ، وذَكَرهُمُ اللهُ فيمن عِنْدَهُ**) [١٦] وهو المعنى الأول الذي ينبغي أن يقوم به المؤمنون.

---

(١٦) أخرجه مسلم (٢٠٧٤/٤ ، رقم ٢٦٩٩) ، ولفظه (عَنْ أبي هريرة - رضي الله عنه – :قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : مَن نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبة من كُرَب الدنيا نَفَّسَ اللهُ عنه كُربة من كُرَب يوم القيامة ، ومن يَسَّرَ على مُعْسِر، يَسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخِرَةِ ، وَمَن سَتَرَ مُسلِما سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، واللهُ في عَونِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عَونِ أَخيهِ ، وَمَن سلكَ طريقا يَلْتَمِسُ فيه عِلْما سَهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طريقًا إلى الجنَّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قوم في بيت من بيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كتابَ

وطريق ذلك هو **المرابطة في بيت الله** لتحقيق ذلك، كما قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

والمرابطة إنما تكون بدايتها المسجد كما ذكر الحديث السابق: (**مَا اجْتَمَعَ قوم في بيت من بيوتِ الله**) ولها شقين، الأول متعلق بالكتاب الذي جلس المؤمنون ليتعلموا ما فيه ويعلموا ويتدارسوا ويعتبروا ويتعظوا ويتبصروا، **فأضيء** لهم الطريق.

والشق الثاني: وهو المتعلق بالسنة العملية، وهي كيفية تطبيق النبي صلى الله عليه وآله وسلم لذلك كله. بمعنى أن يطبق المؤمنون ما تعلموا ويعتبرونه ويتبصرونه على هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى طريقته، وعلى التأسي به في كله صغيرة وكبيرة، وعلى معنى التزكية التي زكاهم بها صلى الله عليه وآله وسلم، فعلمهم الكتاب والحكمة ليزكيهم، أي: يطهرهم

اللهِ تعالى ، ويتَدَارَسُونَهُ بينهم إلا نَزَلَتْ عليهم السكينةُ ، وَغَشيَتهم الرحمةُ ، وحَفَّتهمُ الملائكةُ ، وذَكَرهُمُ اللهُ فيمن عِندَهُ ، ومَن بطَّأَ به عَمَلُهُ لم يُسْرِعْ بِهِ نَسبُهُ).

ويهذبهم وينقيهم بتلك الأخلاق التي كان هو عليها صلى الله عليه وسلم ، مصداقًا لقول عائشة رضي الله عنها: **(كان خلقه القرآن)** (١٧).

فكان التخلق بهذا الخلق الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم هو مظهره الأعظم، والمتحقق الأعلى به هو سبيل التأسي الذي ينبغي على المؤمنين ألا يخرجوا عنه، وإن خرجوا عن ذلك خرجوا عن الربانية بمقدار ما يخرجون عن التأسي به صلى الله عليه وسلم؛ إذ تحقق معنى الربانية تحققا تاما فيه صلى الله عليه وسلم، وبالتالي كانوا يأخذون هذا الحال من أحوال الربانية من أحواله هو صلى الله عليه وسلم؛ تطبيقًا للكتاب، تدبرًا وبصيرة وتذكرًا واتعاظًا وعلمًا وعملاً وتدارسًا وتزكية، فكان معرفة حال النبي صلى الله عليه وسلم هو الشق الموازي لحال تدارس القرآن،

---

(١٧) أخرجه مسلم (٥١٢/١ ، رقم ٧٤٦)، ولفظه (قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فقالت : ألست تقرأ القرآن؟ قال قلت : بلى. قالت: فإن خلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان القرآن).

كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب : ٢١].

فإذا ما تحقق المؤمنون بذلك علموا أن المسجد هو بداية رباطهم، الذي يرابطون فيه؛ لتحقيق هذه الربانية تعلمًا وعلمًا ومدارسة وتزكية، وأن الطريق الربانية بعد مدارسة القرآن التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم هو المرابطةُ في بيت الله .

لذلك قال النبي – صلى الله عليه وسلم – في هذا المعنى: **(وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ)** [١٨]،أي البقاء في المسجد منتظرًا للصلاة. فما لم يتحقق ذلك الرباط على كتاب الله وعلى سنة نبيه تعلمًا وعلمًا

---

(١٨) أخرجه مسلم (٢١٩/١ ، رقم ٢٥١) ، ولفظه (عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ).

وتدارسًا وتأسيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم لا يصل أحد إلى مرحلة التزكية. وكذلك فإنه لا يمكن أن يرابط أحد خارج المسجد أمام أعداء الله تعالى، إلا بأن يتحقق الرباط في بيت الله تعالى أولًا ، لا يمكن ذلك البتة. وما أن رابط الصحابة في بيت الله تعالى مع النبي حتى دعاهم إلى الجهاد والرباط فخرجوا؛ لأنهم قد تحققوا بالرباط المؤسس لنصر الله تعالى، المعين للنجاة في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: من الصلاح إلى الإصلاح

فبعد العلم والعمل والتزكية، انتقلوا من الصلاح إلى أن يكونوا أولياء الله تعالى، كما جاء في قوله: ﴿ إِنَّ وَلِيِّـۧ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] والصالحون إنما صاروا كذلك بمعرفتهم بالكتاب والتزامهم به، كما بينت الآية الكريمة حيز الصلاح ﴿ إِنَّ وَلِيِّـۧ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ ...﴾ [الأعراف : ١٩٦]، فالولاية والصلاح إنما بسبب تنزيل هذا الكتاب.

فإذا ما صار المؤمنون كذلك انتقلوا إلى القضية التالية وهي الإصلاح في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف : ١٧٠] حينئذ ترتفع رايتهم، وتتحقق سعادتهم في الأولى والآخرة.

لذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِيِّـۧ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] فدل على أن تنزل

الكتاب والالتزام به سبيل ولاية الله، وسبيل الصلاح، وإن سبيل الولاية هو بسبب ذلك الصلاح، بمعنى: أن العمل بالكتاب الذي نزله الله هو سبيل الصلاح، والله جل وعلا يتولى الصالحين؛ لأنهم تمسكوا بهذا الكتاب، وأقاموا الصلاة، فلأنهم قاموا بذلك كانوا من المصلحين، فتولاهم الله تعالى ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ...﴾.

لذلك كانت مهمتهم بعد ذلك هي الدعوة، بل هي الإصلاح، قال تعالى في نهاية القول: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران : ١٠٤]. فهؤلاء الذين يدعون إلى الخير، فأول خير يدعون إليه هو معرفة كتاب الله تعالى تدارسًا وتعلمًا وتعليمًا، فيدعون إلى الخير، وإلى التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم، ويدعون إلى ذلك كله إصلاحًا لأحوالهم، وإصلاحًا لأحوال غيرهم، ودعوة لهم إلى ذلك الخير.

فإذا ما سار الناس على هذا الهدي بتحقق النبي صلى الله عليه وسلم به، وقيامه به في نفسه وفي دعوته ينطلقون من التزكية إلى الدعوة إلى الله تعالى، أي انطلقوا من قضية **الصلاح إلى قضية الإصلاح**، انطلقوا إلى الدعوة إلى الله، إلى الدعوة إلى الخير، كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ** ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف : ١٧٠]، فهذا التمسك بالكتاب الذي هو طريق العلم والتعلم والمدارسة الذي يوصل إلى التزكية، حينئذ يكونون صلحاء، ثم ينتقلون من الصلاح إلى الإصلاح، ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ...** ﴾ [آل عمران : ١١٠] ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ...** ﴾ [آل عمران : ١٠٤].

وهذه الآية: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ** ﴾ جاءت لأولئك الباحثين عن التزكية، وعن صلاح النفس، فبينت أن أول ما يظهر من

ذلك الصلاح، هو التمسك بالكتاب وأولى شعائره الصلاة ، وهو ما سميناه - مع مدارسة الكتاب - الرباط في المسجد، فخير أعمالكم الصلاة [(١٩)]، وذلك سبيل الصلاح، وإن أولئك الذين تمسكوا بذلك هم السائرين للإصلاح، وهم المصلحون لغيرهم.

بأن يخرج هؤلاء المتعلمون المتدارسون الربانيون، الذين قد تزكوا وتطهروا لنشر ذلك، لأنهم لا ينتظرون إلى نهاية أعمارهم للوصول لأعلى درجات التزكية، فمتى ينشروا ذلك ؟! فالتزكية لا تنتهي طوال حياة المرء، فهي ممتدة فترة العمر أكملها، من أولها إلى آخرها، ولكنهم حال تربيتهم وتزكيتهم يدعون غيرهم، وهو ما ذكره الله تعالى في آيتنا هذه : ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ** ﴾ [الأعراف :

---

(١٩) رواه ابن ماجة (ح/٢٧٧، ٢٧٨) وأحمد (٥/٢٧٧،٢٨٢) والدارمي (١/١٦٨) والبيهقي في الكبرى (١/٨٢، ٤٥٧) والحاكم (١/١٣٠) ومالك في الموطأ (٣٤) والطبراني (٢/٩٨، ٧/٢٨) وفي الصغير (١/١١، ٢/٨٨). ولفظه (استقيموا ولا تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن).

١٧٠]، فقال: المصلحون، ولم يقل: الداعين، فالمصلحون أمر زائد على الدعوة، إنهم يصلحون لا يفسدون، يزكون لا يخربون، يبشرون لا يعسرون، يؤلفون لا ينفرون، يرحمون ويتكافلون لا يغضبون ولا يسخطون ولا يقسون.

ومن ثم كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن لم يؤد إلى الخير، لا هو أمر بمعروف ولا هو نهي عن منكر، بل هو أمر بالمنكر ونهي عن المعروف، وأفعال سيئة تنفر عن الله وتبعد عنه، قال صلى الله عليه وسلم في وصيته لمعاذ وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: (**يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا**)(٢٠).

---

(٢٠) أخرجه البخاري (٣/١١٠٤ ، رقم ٢٨٧٣) ، ومسلم (٣/١٣٥٩ ، رقم ١٧٣٣) . ولفظه (عَن أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ قَالَ يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا).

الجزئية الأخيرة في الصلاح أن الصلاح الذي يحتاج لهذه الدعوة، وهذه التزكية، وهذا التعلم، وهذا التعليم، وهذا الأمر بالمعروف وهذا النهي عن المنكر، **يحتاج إلى الحلم، وسعة الصدر، والتريث، والأناة،** لا إلى هذا التنفير الذي نعيشه، ولا إلى هذه الشدة وعدم الرفق، ولا إلى هذا العنف، الذي تتسم به كلمات المؤمنين وأفعالهم وعلاقاتهم.

النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**)[٢١]، وقال صلى الله عليه وسلم: (**إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ**)[٢٢] لذلك كان الصلاح لا يكون إلا بالحلم والرفق، سواء كان صالحا أو مصلحا، لذلك لما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ **رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾

---

(٢١) أخرجه البخاري (٥/٢٣٤٩ ، رقم ٦٠٣٢) ، ومسلم (٤/١٧٠٦ ، رقم ٢١٦٥)، ولفظه (يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ).

(٢٢) أخرجه مسلم (٤/٢٠٠٤ ، رقم ٢٥٩٤)، ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ »).

[الصافات :١٠٠] قال المولى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١]، فلا يكون صالحا إلا أن يكون حليمًا، وما نحن فيه من الأخلاق التي لا تتناسب مع أخلاق النبي في توصيل الدعوة وتبليغها – والقصص في سيرته العظيمة كثيرة في ذلك – ، إنما هي طرق لا توصل إلى الله تعالى، بل عطلت الخلق عن الله جل وعلا، وعطلت الدعوة والدعاة، إلى آخر ما نحن فيه من فساد ومن غفلة، وقلة لتذكر والتدبر والتبصر لما نحن فيه من سير وسلوك إلى الله تعالى.

كانت إذن هذه المعاني المختصرة جدًّا هي السبيل الذي ينبغي أن يراها المؤمنون للسير في طريق الربانية؛ عودًا إلى طريق الله تعالى، وتحقيقًا لنجاة النفس، ونصرة الدين، ورفع راية الإسلام، فالإسلام لا يقوم إلا بذلك. إن الربانيين من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – لما تحققوا بذلك قام لهم دينهم، وارتفعت رايتهم، وانتشرت قواعدهم في بلاد الله تعالى، وعم النور أنحاء كون الله جل وعلا؛ لأنهم لما تحققوا بهذا النور انتشر

ذلك النور بانتشارهم، واستضاء هذا العالم بنور الله تعالى، بنور القرآن، بنور السنة، بالنور الذي وضعه الله تعالى في قلوب حملة النور هؤلاء رضي الله عنهم.

الفصل الثاني: كيف نبدأ التدبر لكلام الله تعالى؟

بعد أن وصلنا إلى أن التدبر هو الغرض من تدارس القرآن وتعلمه وتعليمه وهو الذي يحمل المرء على السير إلى الله تعالى، ينبغي للمرء حينئذ أن يكون متعلماً وعالماً بكلام الله تعالى لينتقل من معرقة تفسير القرآن ومعرفة الغايات والحكم والمقاصد إلى التدبر لتكون هذه الآيات التي يتدبرها المرء هي البصائر التي يبصر بها طريقه إلى الله تعالى، وليكون هذا التدبر سبب إصلاح نفسه وسبب إصلاح مجتمعه.

والسؤال المهم الآن: كيف نبدأ التدبر لكلام الله تعالى؟ أو اضرب مثالاً لما تذكر من العلم والتعلم والتدارس مما يمكن أن يكون بداية لهذا الحال من التدبر والتفهم لكلام الله تعالى.

نفتتح بالفاتحة؛ لتكون فاتحة الخير لهذا الكلام، ولذلك الدرس من التدبر والتعلم والتدارس لكتاب الله تعالى، الذي نرجو الله تعالى أن يهيئه لنا، فنتدارس أولًا المعاني الإجمالية كمدخل للتدبر، فليس هذا هو التدبر الذي نقصده، ولكن لا بد

قبل التدبر أن نشير إلى هذه الوجوه من تلك المعاني، التي تبينها كلمات الله المضيئة.

وفاتحة الكتاب تحتمل - كما يقول أهل العلم - مجلدات كبيرة، لا يمكن اختصارها في خطبة أو اثنين أو عشرة خطب، وإنما سنذكر مختصر النظر فيها ليكون المدخل الذي يبين لنا قضية التعلم والتدبر والفهم، وقضية التزكية والعمل، وقضية البصائر من الله تعالى.

أولًا: المعاني الإجمالية لآيات فاتحة الكتاب

ونبدأ بالاستعاذة، فقد أمر الله تعالى بالاستعاذه به، قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل : ٩٨] أي: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله تعالى من الشيطان، فإذا ما قال المرء: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فإنه يستعيذ بالله تعالى، أي يستجير بالله تعالى، أي يلجأ إلى الله تعالى؛ لأنه لا يستطيع أن يرد كيد الشيطان إلا الله سبحانه وتعالى.

والشياطين نوعان، كما ذكر سبحانه وتعالى، شياطين الإنس وشياطين الجن، قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ ...﴾ [الأنعام : ١١٢]. وشياطين الإنس أمر المولى سبحانه وتعالى أن يعاملهم المرء بالحسنى فحينئذ يمكن أن ينصرفوا، كما قال تعالى: ﴿ ... ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ...﴾ [فصلت : ٣٤ - ٣٦]، فيندفع الشيطان كما قال سبحانه وتعالى، أو: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون : ٩٦] فشياطين الإنس يمكن أن تتألف قلوبهم بالدفع بالحسنى وبالأحسن وبالكلام الجميل، بالهدية، بالموعظة، بغير ذلك، جعل الله ذلك سبيلاً لأن يندفعوا.

أما شياطين الجن فلا يمكن أن تتعامل معهم بالحسنى والجميل والهدايا وغير ذلك مما يؤلف قلوبهم، بل كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾ [فاطر : ٦] ثم قال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ ﴾ [المؤمنون : ٩٧] وذلك معناه أنه لا يندفع إلا بقوة من خلقه سبحانه وتعالى، لا تستطيع دفعه إلا بذلك، ومن ثم أمرك بأن تلجأ إلى الله، والمعنى الأول هنا: كيف يكون المرء لهذه القوة التي لا يتمكن منها إلا بالله تعالى، وكل قوة لا تتمكن منها أو تتمكن منها إنما يكون لجوؤك فيها إلى الله تعالى، واستعاذتك فيها بالله تعالى، أن تلجأ فيها وأن تستجير فيها بالله تعالى، وهو ما ينبغي أن يكون في كل عملك وقولك، لذلك يقول: ولا حول ولا قوة إلا بالله، أي لا تحول عن المعصية ولا قوة عن الطاعة إلا بالله ولا تحول مما أنت فيه إلى ما ينبغي أن تكون عليه إلا بالله تعالى.

وقد افتتح الله تعالى فاتحة الكتاب بقوله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة : ١-٢] إلى آخر الآيات، وهي السبع المثاني من القرآن العظيم، وهي فاتحة الكتاب، وهي أم الكتاب، وكلها أسماء للفاتحة، وردت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - .والفاتحة هي أعظم سورة في كتاب الله تعالى، لم ينزل مثلها فيما سبق من الكتب، في التوراة والإنجيل، وقد قال بعض العلماء: جُمعت الكتب السابقة في القرآن، واختُصرت معاني القرآن ومقاصده في الفاتحة.

وقد ذكر الإمام ابن القيم وغيره من العلماء أن الفاتحة تحتوي على كل مقاصد القرآن الكريم، وإن مقاصد القرآن الكريم تتلخص في ثلاثة أمور:

الأول: الثناء على الله سبحانه وتعالى بجميع المحامد، وتنزيهه عن جميع النقص، ومعرفة الرب سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، ومعرفة البعث والنبوات، والجزاء واليوم الآخر.

الثاني: الأمر والنهي.

الثالث: الوعد والوعيد.

وما زاد على ذلك من قصص القرآن وسيرته وغيره إنما يخدم هذه المقاصد؛ لتحقيق أوامر الشرع وصلاح الدارين- الأولى والآخرة- إذ هذا الكتاب - كما ذكرنا - بصائر وهدى ونور وشفاء، وهو الروح الذي بغيره لا حياة لأحد فردا كان أو جماعة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ...﴾ [الشورى : ٥٢].

فإذا نظرنا النظرة الأولى وجدنا للقرآن مقاصد، ووجدنا للقرآن أصولاً، أو للدين أصولاً، فهذه الآيات السبع تبين مقاصد القرآن، وتبين أصول الدين، وكذلك تبين الوعد والوعيد، وتبين ما للمؤمنين إذا أقدموا على الله تعالى من السعادة، فتبين حال المؤمنين وحال الضالين والمغضوب عليهم، وتبين الصراط المستقيم، وتضيء لهم ذلك الطريق بالتعبد لله تعالى، وإنهم لا يستطيعون إلا بالاستعانة به بربوبيته سبحانه

وتعالى، ولا يكون ذلك كله إلا بتوحيده بأسمائه وصافته، فأثبتت الجزاء بكونه ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [الفاتحة : ٤] سبحانه وتعالى، وأنه يجمع الناس لذلك اليوم، فيحكم بينهم بالعدل سبحانه وتعالى، وكذلك يثيب الطائعين ويعاقب العاصين.

والآيات الأولى كلها في معرفة الرب سبحانه وتعالى وإلهيته وربوبيته، ورحمته سبحانه وتعالى والمقصد الأول هو معرفة الرب بأسمائه الحسنى في أسماء (الله، والرب، والرحمن) وتنزيهه سبحانه وتعالى بها. وهذه الأسماء الثلاثة هي أساس بقية أسماء الله تعالى الحسنى، واسم (الله) تعالى تثبت به إلهيته، و(الرب) تثبت به ربوبيته وأسماؤه وصفاته، و(الرحمن) يثبت بها بقية أحوال الناس جميعا، من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإنزال الغيث من السماء، وغير ذلك مما يرحم الله تعالى به العالم، ومما يخص به المؤمنين من رحمة الدنيا والآخرة.

ثم يأتي معنى العبودية لله تعالى في الأمر والنهي، ثم الوعد والوعيد ﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ ...﴾ [الفاتحة : ٧] .

والأمر والنهي لا يتحقق إلى بمعرفة الآمر الناهي سبحانه وتعالى، فعرَّفنا سبحانه وتعالى بكونه الإله الذي يُعبد، والرب الذي يخلق ويرزق، والرحيم الذي يرحم عباده، فيبين لهم طريق الهدى، ويتنزل عليهم بالنعم، وبين لهم ما يكون سبب سعادتهم في الأولى والآخرة، وإذا هو كذلك يرحمهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإنزال الغيث، وكل ذلك من أسمائه الحسنى جل وعلا.

فالأمر إنما يترتب على معرفة الآمر سبحانه وتعالى وبينت كذلك حال للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [الفاتحة : ٤]، فقدمت السورة معرفة الآمر، ثم بينت كذلك

الأمر والنهي، ثم بينت الوعيد والجزاء على المخالفة ، وكذلك بينت جزاء الطاعة لله تعالى.

الفاتحة حوت أصول الدين

وبعد أن بينت الفاتحة مقاصد القرآن نظر إليها العلماء نظر آخر فبينوا أن الفاتحة تشتمل على أصول الدين كلها، من معرفة الرب بأسمائه وصفاته، وأن له الحمد والثناء سبحانه وتعالى على ذلك؛ إذ الحمد كله له، والفضل كله له، فكان التعبد كله له جل وعلا.

فأصول الدين التي يتكلم عليها المتكلمون وغيرهم تتلخص في إثبات الرب جل وعلا، وإثبات البعث، وإثبات النبوات، وإرسال الرسل، وهذه الثلاثة هي مدار أصول الدين.

فلما اشتملت الفاتحة على الثناء اشتملت على جميع المحامد التي يحمد بها الرب جل وعلا، فكان ذلك دليلا على اتصافه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا كلها، وعلى تنزيهه جل وعلا عن

النقائص كلها سبحانه وتعالى، واشتملت كذلك على إثبات البعث، وإثبات النبوات.

إثبات النبوات من سورة الفاتحة

وأما إثبات النبوات التي أثبتتها هذه السورة الجميلة المثاني فقد أثبتتها من وجوه كثيرة:

أولها: بكونه هو الله جل وعلا، بأن الله تعالى هو المألوه، أي هو الذي يجب أن تألهه القلوب، بأن تتعبد له، وأن تحقق الإلهية له سبحانه وتعالى، أن تعبده ظاهرًا وباطنًا، وما يستطيع الإنسان أن يعبد ربه سبحانه وتعالى على الإخلاص وبما شرع إلا عن طريق الرسل، فكان ذلك دليلاً على إثبات وجود هؤلاء الرسل.

فبكونه سبحانه وتعالى معبودًا، ولا يُعبَد إلا بما شرع، فكان لا بد أن يرسل من يبين شرعه للناس، ويدعوهم إليه. وبكونه سبحانه وتعالى الرب، الذي يخلق عباده ويرزقهم، ويتلطف بهم ويربي عبادة، وينميهم، ويحافظ عليهم، ويرزقهم، ويقوي أبدانهم، وكل ذلك من أجل إصلاحهم في الدنيا، فكان من باب

الأولى، أن يرسل لهم من يصلحهم في الآخرة، ويرفع درجتهم عنده سبحانه وتعالى، ولذلك كان من معاني الرب إرسال الرسل؛ تحقيقا لهذا المعنى من معاني الربوبية.

وكذلك في قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾ [الفاتحة : ٤] أي مالك يوم الجزاء، الذي يدين فيه الناس على أعمالهم إن كانوا مؤمنين أو كفارا، فإنه إنما يحاسبهم سبحانه وتعالى على ما أرسل إليهم من الرسل كما قال: ﴿ ... **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا** ۝ ﴾ [الإسراء : ١٠٥] فلا بد حينئذ، إن كان سيجمعهم ليوم الدين ليحاسبهم، أن يكون قد أرسل إليهم الرسول، الذي يبين لهم علام سيحاسبون، وبما سيؤاخذون من أوامر الله تعالى التي ستكون موضع المناقشة والحساب والجزاء والعقاب.

الثاني: من أدلة إثبات النبوات والرسل قوله تعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعۡبُدُ** ...﴾ [الفاتحة : ٥] فإن كان المولى جل وعلا قد وضع في الفطر السليمة للخلق أنهم يقبلون على الله تعالى ويدعونه، ولكن يبقى السؤال: كيف نعبد الله تعالى ؟ إن تفاصيل

ما يجب من العبادة، وتفاصيل ما يجب من المعاملة والأخلاق، كل ذلك جاءت به الرسل ولا يعرف إلا عن طريقهم، لا يعرف من الله تعالى كيف تعبده إلا بما قد أمرك سبحانه وتعالى، وأخلصت فيه له، فكيف تعرف الإخلاص وطريق التعبد لله جل وعلا إلا عن طريق رسله الذين أرسلهم، فكانت دليلا كذلك على إرسال الرسل.

أنواع الهداية

نتقل إلى قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة : ٦] إلى آخر الآيات، وهو المعنى الذي كان ينبغي أن نبدأ به الكلام ولكننا آثرنا اتباع سياق الآيات حتى نصل إلى هذا المعنى، وهو: أن هذا الصراط المستقيم قد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يدعونه به، وأن يهديهم ويوفقهم إليه، وأن يثبتهم عليه، فقالوا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة : ٦].

والهداية في كلام الله تعالى هدايتان: هداية الطريق، وهداية التوفيق، بمعنى أن الله تبارك وتعالى هدى الناس جميعًا إليه،

بمعنى أنه سبحانه وتعالى بين لهم الطريق إليه، وبين لهم السبيل، وأضاءه لهم، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، فلم يكن لأحد بعد ذلك حجة، هذه الهداية التي يقول فيها المولى سبحانه وتعالى: ﴿ ... **وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ** ...﴾ [الشورى : ٥٢- ٥٣] ثم في الآية الأخرى قال: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ...﴾ [القصص : ٥٦] فدل على وجود هداية أخرى غير الهداية التي جاءت في قوله: ﴿ ... **وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ** ...﴾ فهذه الهداية العامة التي يبين بها طريق الله تعالى، والتي يبين بها للناس كلهم الحق من الضلال، والخطأ من الصواب، وطريق الوصول إلي الله تعالى، ويبين لهم جزاءهم عند ورودهم إلى الله تعالى، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

أما الهداية التي نفاها عنه في قوله: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ...﴾ فهي الهداية الخاصة، هداية التوفيق، وهي وضع الإيمان في قلوب المؤمنين، وتزيينه لهم، وتحبيبهم فيه، وتحبيبهم إياه، وهي لله وحده سبحانه وتعالى؛ اختصاصًا بمن اختصه من

عباده سبحانه وتعالى؛ توفيقا لهم، ومحبة لهم، وعونا لهم جل وعلا، ولكن مع ذلك أمرهم بأن يدعوا الله بالهداية.

وذلك لأن هداية التوفيق هذه درجات، فالهداية التامة إنما تكتمل بأن يفعل المؤمنون كل الأوامر، وأن ينتهوا عند كل النواهي، وهي درجة عالية، فمن الذي ائتمر بكل الأوامر وانتهى عن كل النواهي؟! لذلك كان قوله: ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ﴾ أمر للمؤمنين أن يدعوا ربهم - على الدوام- بالهداية، فمهما كانوا مؤمنين أو متقين فهم محتاجون إلى أن يدعون الله تعالى بالهداية؛ ليتمم لهم ما نقص من أوامره، وليتمم لهم كذلك ما وقعوا فيه من مخالفة الرب سبحانه وتعالى، هذه الأولى التي تستدعي طلب الهداية.

والثانية: أن الهداية إنما هي للعلم والعمل، فهل كل ما علمناه من دين الله تعالى قد قمنا به ؟! كلا، فنحن مقصرون في العمل بما تعلمنا، وكذلك مقصرون في تعلم ما قد جهلنا من العلم والعمل في طريق الله تعالى. فكان لزامًا أن ندعو الله تعالى

أن يتمم علينا الهداية، بالعمل بما علمنا ولم نعمل به، وبتعلم ما لم نتعلم؛ حتى نعمل بذلك كله.

فكان قولنا: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ دعاء بالهداية لأمور قد جهلناها ولم نعلم بها فندعو الله تعالى أن يهدينا إليها، وأمور لم نعملها، فندعو الله تعالى أن يعيننا على العمل بها، فإننا مقصرون في كل ذلك.

فإن أتم الله تعالى الهداية على المرء فهو يدعو الله تعالى أن يثبته على هذه الهداية، كما في حال النبي – صلى الله عليه وسلم – والمتقين الأبرار، إنهم إن كانوا هداة مهتدين فإنهم يدعون الله تعالى بالهداية، أي بمزيد الهداية أو بمزيد التثبيت على تلك الهداية إلى أن يلاقوا ربهم، لذلك لم يكن عبثا إذا أن يقول المؤمن في صلاته في كل ركعة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ حتى يعلم ضرورته إلى الله تعالى وافتقاره إليه في كل وقت، أن يكون من الذين مَنَّ الله تعالى عليهم بفتح أبواب الهداية لهم، أو تثبيتهم على ما هم فيه من الهداية، أو زيادتهم من تلك الهداية.

أقصر الطرق الموصلة إلى الله تعالى

إن الصراط المستقيم هو صراط الله تعالى، الذي يقول فيه المولى جل وعلا: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ...﴾ [الأنعام : ١٥٣] والصراط المستقيم: هو أقصر الطرق الموصلة إلى الله تعالى، وإنه لا صراط غيره، وكما قال المفسرون في هذه الآية: فأفرد الصراط وعدد سبل الضلال، ومن ثم كان لزاما على المؤمن أن يدعو ربه بذلك، وأن يسلك الطريق إليه، وأن يستعين بالله على أن يوفقه على أن يسير في هذا الطريق الموصل إلى الله تعالى؛ إذ لا طريق غيره، لأن الطرق الأخرى هي طرق الضالين وطرق المغضوب عليهم، لذلك قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ...﴾ [الفاتحة : ٦-٧].

والمغضوب عليهم والضالون إن قلنا: (اليهود والنصارى) فقد فسرت بذلك، ولكن معناها أعم، لأن الكمال والهداية إلى

الصراط المستقيم إنما تتلخص في العلم والعمل والتزكية بذلك العلم والعمل، فإن تحقق العلم والعمل والتزكية -التي تكلمنا عليها في الربانية- كان هذا صراط الله المستقيم، وإلا فإن علموا ولم يعملوا كانوا من المغضوب عليهم، وإن عملوا على الجهل كانوا من الضالين، والضالون مغضوب عليهم، والمغضوب عليهم ضالون أيضًا، ولكن قد اختص المغضوب عليهم بهؤلاء اليهود، كما ذكر الله تعالى عنهم، بأن جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت في قوله: ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ...**﴾ [المائدة : ٦٠] لكونهم علموا فلم يعملوا.

وأما النصارى فقال فيهم سبحانه وتعالى ﴿ **... لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾** ﴾ [المائدة : ٧٧]، فهؤلاء اختصوا بذلك وهؤلاء اختصوا بذلك، وكلاهما ملعون

ومغضوب عليه وضال، وما كان الله - جل وعلا - ليذكر ذلك إلا لينبه المؤمنين على هذا الحال الذي لا ينبغي أن يصلوا إليه، ولا يجوز لهم أن يطرقوه، فإن العلم والعمل لا بد أن يستدعي التزكية، التي يسيرون بها إلى الله؛ ليكونوا ربانيين بما كانوا يعلمون الكتاب، وبما كانوا يدرسون.

ونود هنا الإشارة إلى أمرين في قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ...﴾ ، الأول: هو أن الله - جل وعلا - بعد أن أثنى عليه المؤمنون بكونه الرب، ورب العالمين، وهو الله الرحمن، وهو ملك يوم الدين إذا بهم - بعد هذا الثناء - يذكرون أنهم لا يعبدون إلا هو، ولا يستعينون إلا به، فقدم أمرين قبل الدعاء بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ الأول: حمد الله تعالى وتنزيهه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا. والثاني: التعبد له والاستعانة سبحانه وتعالى، فكان مناسبًا أن يدعو الناس ربهم أن يهديهم.

فبعد أن توسلوا إليه بأسمائه وصفاته، وبعد أن توسلوا إليه بالعمل الصالح والاستعانة، وبعد أن مجّدوا ربهم وأثنوا عليه، ثم قدموا له العمل الصالح والاستعانة به في ذلك إذا بهم يتوسلون بذلك، وهو أعظم أنواع التوسل، وهو التوسل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، والتوسل بالتعبد لله جل وعلا، والاستعانة به، والتوكل عليه.

فإذا ما توسل المؤمنون إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، أو دعوه باسمه الأعظم سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**)[٢٣] أو في الحديث الثاني:(**اللَّهمَّ إِني أسألُكَ بأني أَشْهَدُ أَنَّكَ أنت**

---

(٢٣) الحديث رواه أبو داود (١٤٩٥) والترمذي (٣٥٤٤) والنسائي (١٣٠٠) والحاكم في المستدرك (٦٨٣/١) حديث (١٨٥٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وابن حبان في صحيحه (١٧٥/٣) حديث (٨٩٣) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي. كلهم يرويه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ولفظه (عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا،

اللهُ ، لا إلهَ إلا أنتَ، الأحَدُ الصَّمَدُ ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ، ولم يكن له كُفُوا أحَدٌ) (٢٤) ، فهذا الحديثان ورد فيهما الثناء على الله تعالى، والحمد له جل وعلا، ثم الدعاء له فقال فيهما النبي صلى الله عليه وسلم: **(لَقَدْ دَعَا اللهَّ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى)** فكان التوسل بآيات الفاتحة التي

وَرَجُلٌ يُصَلِّي، ثُمَّ دَعَا: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى).

(٢٤) أخرجه أحمد (١/٢٣٠ ، رقم ١٣٨٢٤) ، وأبو داود (٢/٧٩ ، رقم ١٤٩٥) ، والترمذي (٥/٥٥٠ ، رقم ٣٥٤٤) ، وصححه ابن حبان (٣/١٧٥ ، رقم ٨٩٣) ، والحاكم (١/٦٨٣ ، رقم ١٨٥٦) وقال : صحيح على شرط مسلم.. ولفظه (عَنْ بريدة – رضي الله عنه – : أَنَّ رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– : «سَمِعَ رَجُلا يقول : اللَّهمَّ إِني أسألُكَ بأني أَشْهَدُ أنَّكَ أنتَ اللهُ ، لا إلهَ إلا أنتَ، الأحَدُ الصَّمَدُ ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ، ولم يكن له كُفُوا أحَدٌ ، فقال : والذي نفسي بيده ، لقد سأل اللهَ باسمه الأعظَمِ ، الذي إذا دُعِيَ به أجابَ ، وإذَا سُئِلَ بِهِ أعْطَى». هذه رواية الترمذي. وفي رواية أبي داود : «بَاسْمِهِ الذي إذا سُئِلَ به أعطى ، وإذا دُعيَ به أجابَ»).

تضمنت الثناء بتلك الأسماء العظيمة لله تعالى، من أهم الأسباب التي بها يستجاب الدعاء.

ثم بعد ذلك جاء التوسل بما يستطيعون من مزيد التعبد والاستعانة والتجرد والإخلاص والصدق لله تعالى، فهذا هو الطريق الذي ينبغي أن يكون طريق المؤمنين لأن يتوسلوا إلى الله تعالى بأن يفك عليهم ما هم فيه، وأن يطلبوا منه أعظم مطلوباتهم وهو أن يهديهم الصراط المستقيم، فكان لزاما على المؤمنين أن ينظروا في ذلك.

إن الهداية لا تأتي إلا بهذه الأسماء الحسنى ومعرفتها، ومعرفة الرب والتوسل إليه بها، ومعرفة طريق التعبد والإخلاص لله تعالى، وادخار هذه الأعمال الصالحة لتكون سببًا لأن يهديهم الله جل وعلا.

وكلمة أخرى في قوله: ﴿ **صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ** ...﴾ فإنهم يدعون الله تعالى بأن يوفقهم إلى الصراط هؤلاء ﴿ ... **ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ** ...﴾ ليس أي صراط، وذلك لأنهم - كما يقول

العلماء - يسيرون في طريق قد تنكب عنه الكثير، يسيرون في طريق لا يسير فيه إلا القليل، كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ ... ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ...﴾ [ص : ٢٤] أو في قوله:﴿ ... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ : ١٣]، فهذا الطريق لا يطرقه ولا يسلكه ناس كثير، بل هو قلة، وهذه القلة التي تسلك هذا الطريق تستوحش من سيرها منفردة عن بقية الناس، **ومن ثم فإن الله - جل وعلا - ألهمهم وأمرهم أن يدعوه بأن يكونوا رفقاء الذين أنعم عليهم ليعوضهم ذلك وحشة هذا الطريق،** فيبين لهم أن سلفهم في هذا الطريق الذي يسيرون عليه لا يستوحشون، بل يسيرون عليه وهم مطمئنون، يسيرون عليه وهم في سكينة وتؤدة إلى الله - جل وعلا - غير مضطربين، ولا قلقين، ولا خائفين، فهو صراط الذين أنعم الله عليهم، وهؤلاء المنعم عليهم، كما قال تعالى هم الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فالمنعَم عليهم الذين يسيرون أمامك، ومثل هؤلاء لا تستوحش بهم، بل تستأنس بهم القلوب

، وتسير وراءهم، وتهتدي بهديهم، أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، هم أدلتك وسلفك وصحابتك ورفيقك في سيرك، لا تستوحش حينئذ من قلة السالكين، فتسلك سبل الهداية ولو قل سالكها، ولا تستكثر سالكي سبل الضلال فهم هالكون؛ ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ... **أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾** ﴾ [مريم : ٥٨].

هؤلاء هم المنعم عليه، هؤلاء هم أدلتك التي تسير وراءها، هؤلاء هم رفقاؤك الذين تستأنس بهم، وتسير على صراطهم، ذلك صراطهم لا صراط غيره، ذلك طريقهم لا طريق غيره ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] هذا الصراط الذي يسير عليه المؤمنون، الذين قد توسلوا إلى الله وارتبطت قلوبهم به، وتعلقت

آمالهم بالله جل وعلا فانطلقت هذه القلوب وهذه الأبدان في التعبد له، ورفع رايته جل وعلا.

تلك إشارات خاطفة مختصرة لتلك المعاني، يكاد يكون اختصارها مخلاً، بل هو مخل؛ لأن هذه المعاني أكثر من أن يحاط بها في هذا الكلام، فلعل الله سبحانه وتعالى أن يجعلها فاتحة الخير لهذا الكلام من التدبر والتفهم والتبصر، من التعلم والتعليم والمدارسة لكلام الله؛ ليكون سبيل التزكية ﴿ ... وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ثانيًا: تدبر آيات فاتحة الكتاب

بعد أن أشرنا باختصار إلى مقاصد الفاتحة وبينا أنها تشمل أصول الدين ومقاصد القرآن، وأنها كذلك ترد على كل المغرضين والمشككين وأصحاب الشبهات والبدع، وأشرنا أيضًا إلى معرفة الصراط المستقيم، وما ينبغي أن يكون المرء عليه مع الله تعالى.

نبدأ شيئًا في تدارس هذه المعاني بصورة أكثر تفصيلًا، لتكون مثالاً لمعنى التعلم والتعليم والتدارس، ثم بعد ذلك التدبر، فما أشرنا إليه من معانٍ إجمالية للآيات، كان هو الجزء المتعلق بأن نعرف التفسير الذي يستطيع به المرء التدبر في آيات الله تعالى الذي هو مقصود تلاوة القرآن وتدارسه وتعلمه ، فلا بد أن تكون بداية التدبر معرفة هذه المعاني، التي قد اشتملت عليها كلمات الله تعالى، فلا يمكن التدبر إلا بمعرفة اللغة والتفسير البسيط، لأن التدبر ينبني - كما ذكرنا - على معرفة التفسير، وعلى معرفة مقاصد الآيات ودلالاتها وغاياتها التي يشير إليها القرآن الكريم، ومن ثم كانت بداية التدبر هو أن يتعلم وأن يتدارس هذا الكلام، وحينئذ إذا تأدب المرء بآداب التعلم والتدارس وألقى بقلبه بين يدي الله تعالى فإن الله تعالى يفتح عليه باب التدبر ويلقيه في قلبه.

فإذا ما وصلوا إلى هذه الحالة وصلوا إلى التذكر والعظة والسير إلى الله تعالى، وانشرحت القلوب، وتفرجت منها ينابيع

الحكمة، واتسعت الصدور، وتنزل في القلب نور القرآن وصار كلام الله هداه وشفاؤه ورحمته وروحه، وكل هذه الأوصاف التي سماه الله تعالى بها، وحينئذ يعود المرء حيًّا من جديد، كما قال الله تعالى في الروح: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ...** ﴾ [الشورى : ٥٢].

فإذا قال المرء: كيف نتدبر هذه الآيات ؟ ما التدبر في آية الاستعاذة؟ وفي البسملة؟ وفي الحمد؟ وفي الرحمة؟ وفي ﴿ **مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤** ﴾ [الفاتحة : ٤]؟ وفي ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥** ﴾ [الفاتحة : ٥]؟ نقول-كما ذكرنا-: **التدبر هو النظر في مآلات الآيات وعواقبها**، ودبر الشيء هو عاقبته، **والتدبر أن تنظر في الآية ترى موقعها من نفسك، وآثارها على قلبك وعملك**، فتنظر أي موقع وقعت الآية على نفسك، وما أثر هذه الآية على قلبك وعملك، وأن تنظر **موقعك أنت منها، ومرتبك من تنفيذها أو عدم تنفيذها والقيام بها، وتطبيقها أو عدمه**، ثم بعد ذلك ترى أن هذه الآية إنما هي مقياس وميزان لسيرتك فيها، فتزن نفسك بها

وتجعلها مقياسًا لك، متحققًا بها، واضعًا مرتبك منها، فاهما أنت فيها على أي باب، فتضع حينئذ من أدويتها على داء قلبك، ومن وصفاتها على أمراضك لشفائك.

تدبر الاستعاذه

وتدبر الاستعاذة، يبدأ إذا ما قال المرء: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فإنه -كما أشرنا- يستجير بالله تعالى، ويلجأ إليه، وهذا أول تدبر يدخل به المرء إلى كلام الله تعالى، إنه يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، يستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفسه، كما استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الاستعاذة الكاملة: (**أعوذُ بِاللهِ السَّميعِ العليمِ من الشَّيطان الرجيم ، مِنَ هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ**)(٢٥) . وهمزه

---

(٢٥) أخرجه أحمد (٣/٥٠، رقم ١١٤٩١) ، وأبو داود (١/٢٨١ ، رقم ٧٧٥) ، والترمذي (٢/٩ ، رقم ٢٤٢) ، وقال الهيثمي في مجمع الزائد (٢/ ٣١٣): رواه أحمد ورجاله ثقات. .. ولفظه (عَنْ أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - : قال : «كانَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قامَ من الليل كَبَّرَ ، ثم يقول : سُبحانَكَ اللهمَّ وبِحَمدِكَ ، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّكَ ، ولا إِلَهَ غَيرُكَ ، ثم يقول :

يعني: خنقه، أي الخنقة التي تصيب المرء فيخنق الشيطان المرء فيصير المرء مخنوقًا لا يستطيع، و تصيبه هذه الحالات السيئة، فأمره الله تعالى أن يستعيذ به من الشيطان حتى لا يلبس عليه، ولا يوقعه في هذه الخنقة، فلا يستطيع التدبر، فبلجوئه إلى الله تعالى يستطيع الفهم عن الله تعالى، ويستطيع العمل بهذا الفهم، ويستطيع أن يجمع قلبه لا يشتته الشيطان عليه؛ بحيث لا يتمكن من التدبر والإقبال والخشوع عند تلاوة الآيات وترديدها وترتيلها، والبكاء عند تلك الآيات، إلى آخر المرجو من آيات الله تعالى وتلاوتها.

فإذا قلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وهي طلب الاستعاذة من الله تعالى، فما موقع هذه الآية من قلبك وعملك؟ وما آثارها على قلبك وعملك؟ وما مرتبتك من هذه

اللهُ أكبر كبيرا ، ثم يقول : أعوذُ بِاللهِ السَّميعِ العليمِ من الشَّيطان الرجيم ، مِنَ هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ». هذه رواية الترمذي . وزاد أبو داود بعد قوله : «غَيرك» ثم يقولُ : «لا إلهَ إلا اللهُ» ثلاثا . وفي آخر الحديث : «ثُمَّ يَقْرأُ».

الاستعاذة؟ هل لما قلت: أستعيذ بالله، أستجير بالله صارت مرتبك الاستجارة بالله فعلا؟! حتى إذا ابتدأت القراءة كنت مستجيرا بالله إلى الدرجة التي قد أجارك الله تعالى من الشيطان فأقبلت على القراءة والتلاوة بغير هذه الوسوسة، بهذا الفهم، بهذا الإقبال على الله تعالى، أو أن ميزانك ومقياس استعاذتك بالله أقل من ذلك، إذن ما مرتبتك؟!

أنت ترى مرتبتك حينئذ، وأنت ترى أثر هذا اللجوء إلى الله والاستجارة بالله في ما قد أقدمت عليه من عمل، وترى قيمة استعاذتك هذه في منع تلك الوسوسة، هل استعذت بالله تعالى استعاذة كاملة، تمنعك بهذه الاستجارة بالله من الشيطان؟! أم لا زال للشيطان عليك سبيل ووسوسة ومداخل؟

ما هذه الدرجة التي قد وصلت إليها في الاستجارة بالله فمنعك من الشيطان، وحصنك منه، ودفعه عنك، وصرت بذلك مقبلا على ربك، قد تخلصت من تلك الوساوس إلى هذه الدرجة التي تفهم بها كلام الله، والتي تمتنع بها من الشيطان، والتي يجتمع بها قلبك على آيات

الله تعالى، ما درجتك إذن؟ ما سيرتك ومِقياسك لنفسك في هذه الآية؟

لعلك عرفت شيئًا، لعلك عرفت إذن أنك ما حصلت هذا التدبر، وما حصلت درجة الاستجارة بالله التي تمنعك الوسوسة، ومداخل الشيطان، والتي تفسد عليك قراءتك وفهمك، وحضور قلبك، واجتماع قلبك وهمك على الله تعالى، أين درجتك؟ ما مرتبتك؟ ما أثر هذه الاستعاذة على قلبك حتى صار قلبا مجتمعا بالله، مستجيرًا به، يعلم قوة من استجار به سبحانه وتعالى، وأقبل عليه، ويعلم قوة حفظه لك إن استجرت الاستجارة المطلوبة، أو الاستجارة العالية، عرفت إذن مرتبتك في هذا الحال، وعرفت موقفك من الله في أن يجيرك، وموقف هذه الآيات وأثرها على ذلك القلب.

هل عندما قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كانت لك المرتبة العليا؟ أم ما زلت عندما قلت ذلك لم تقلها قولا حقيقا من قلبك، فكانت صلاتك مليئة بالوسوسة وتفرق قلبك حال

الصلاة على الله تعالى، أو حال القرآن، أو حال الذكر، أو حال بقية الأمور؟ معنى ذلك أن استجارتك بالله تعالى، ودفع الله عنك، لم يصل فيه المرء إلى شيء من الاستجارة بالله تعالى، وأنه مهما قال: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لم تحصل منها استجارة من الله، ولم تأخذ منها حظك من الله، الذي يقوي قلبك، ويدفع عنك الشيطان، ويجمع قلبك على الله تعالى، ويرزقك به التدبر، ويرزقك به الفهم، لم تحصل شيئا من ذلك، رجعت على نفسك حينئذ باللوم، ورجعت عليها بالتقصير، ورجعت عليها بالتضرع إلى الله تعالى أن يرزقك ذلك، وأن يعطيك هذا الحظ، وحاولت حينئذ أن تتضرع إلى الله تعالى أن يعلي تلك المرتبة، وأن يجمع ذلك القلب وأن يكون لك حظ كبير من استجارتك بالله تعالى أكثر مما أنت فيه، فيجمع به قلبك، ويأخذك إليه، ويبعد عنك به الشيطان، وأن يمنع عنك تلك الوسوسة كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ**

هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون :٩٧ - ٩٨] أعوذ بك رب أن يحضرون، حتى يكون لك حال مع الله تعالى قد وُفقت به إلى منع الشيطان عنك، ويجمع فيه أفكارك، ويجمع فيه أحوالك الحسنة على هذه الأعمال التي تأتيها، صلاة كانت، تلاوة كانت، ذكرًا كانت، عملاً كانت، بحيث تكون ماشيًا في جوار الله تعالى.

فصارت هذه الآية معنى جديدًا لتضرعك إلى الله تعالى **أن يرزقك الاستجارة به، والإقبال عليه، وجمع قلبك على الله تعالى، ودفع هذا العدو الذي لا يندفع إلا بالله تعالى**، وعلمت أيضا أن استغاثتك بالله واستجارتك بالله ضعيفة، لم توصلك إلى حال حسن تقبل به على الله، فكان لجوءك مرة أخرى لله تعالى أن يرفع عنك ذلك، وأن يقويك به، إلى آخر ما تطلبه من ربك، فإنه حين إذ عندما علم حالك وحاجتك فإنه سبحانه وتعالى يعطيك على قدر

إخلاصك وصدقك وإقبالك وبذلك وحزنك وهمك على أنك في هذا الحال السيئ.

عرفت موقعك إذن من الاستجارة بالله تعالى، وعلمت كم أنت مفرّط في حق ربك ونفسك ودينك أن الله قد بصرك، وهذه هي البصيرة من هذه الآية الآمرة بالاستعاذة، أن الله قد بصرك وأضاء لك طريقًا، تلجأ به إليه، وتستجير به إليه، ويغيثك فيه، ويمنعك فيه من الشيطان، وأنت مقصر، وأنت مفرط، وكلام الله تعالى لا خلف له، لا بد وأن يتحقق، إذا طلبت الاستغاثة والاستجارة منه أجارك وأغاثك، وإنما العيب فينا والتقصير منك، وعدم البذل والنصح لنفسك والحزم معها إنما هو منك.

علمت هذا المعنى؛ لتتدبره في حياتك كلها، أن تكون مستجيرا بالله تعالى لاجئًا إليه في كل أحوالك، حتى تكون محفوظًا في كل أفعالك وأقوالك باللجوء إلى الله تعالى، وبالاستجارة به، وبالركون إليه، وبخروجك عن كل حول وطول وقوة إلى حول الله تعالى، ما قال لك ذلك سبحانه وتعالى إلا لتظهر له ضعفك، إذن لا ترى نفسك غافلاً أبدًا عن ذلك الحال الذي ينبغي أن تكون فيه مع الله

تعالى، إن خرجت عنه قيد أنملة أو غفلت عنه لحظة واحدة، فقد رأيت نفسك، وارتكنت إلى علمك وقوتك وصحتك ومالك وجاهك وسلطانك، وهذا هو الخراب المبين في الدنيا والآخرة.

عندما عثرت دابة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يركبها قال أحد الصحابة: (**تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّهُ يَعْظُمُ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الْبَيْتِ وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللهِ فَإِنَّهُ يَصْغُرُ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابَةِ)** [٢٦] فالشيطان يتحاقر ويتصاغر ويتضاءل عند افتقارك إلى قوة الله تعالى، وعند لجوءك إليه سبحانه وتعالى.

---

(٢٦)أخرجه أبو داود (٤/٢٩٦ ، رقم ٤٩٨٢)، والنسائي في الكبرى (٦/١٤٢ ، رقم ١٠٣٨٩) ، وقال الهيثمي (١٠/١٣٢) : رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمران وهو ثقة . والحاكم (٤/٣٢٥ ، رقم ٧٧٩٣) ، وقال : إسناده صحيح.. ولفظه (عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَثَرَ بَعِيرِي فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّهُ يَعْظُمُ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الْبَيْتِ وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ , وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللهِ فَإِنَّهُ يَصْغُرُ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابَةِ»، وفي رواية (عَنْ أَبِي تَمِيمَةَ الْهُجَيْمِيِّ عَمَّنْ كَانَ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كُنْتُ رَدِيفَهُ عَلَى حِمَارٍ فَعَثَرَ الْحِمَارُ فَقُلْتُ

فلا يقْدم المرء على شيء أبدًا - في قول أو فعل أو صلاة أو سير - إلا ويدعو الله تعالى أن يجيره من الشيطان أن يزيغ قلبه، أو أن يتخبطه من المس، أن يوقعه في الخطأ، كما قال: (من همزه ونفخه ونفثه) [(٢٧)] ونفخه يعني: كبره، أن ينفخ فيك حتى تصير متكبرًا، ترى نفسك وترى قوتك وترى مالك، يقول لك: افعل، أنت تستطيع، أنت قوي أنت كذا وكذا، فتعلم حينها أن من قال لك: (أنت) هو الشيطان، لأنه لا يقول: (أنا) إلا الشيطان، فالشيطان يقول: أنا

تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ تَعِسَ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ صَرَعْتُهُ بِقُوَّتِي فَإِذَا قُلْتَ بِسْمِ اللَّهِ تَصَاغَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ حَتَّى يَكُونَ أَصْغَرَ مِنْ ذُبَابٍ).

(٢٧) أخرجه أحمد (٣/٥٠، رقم ١١٤٩١) ، وأبو داود (١/٢٨١ ، رقم ٧٧٥) ، والترمذي (٢/٩ ، رقم ٢٤٢) ، وقال الهيثمي في مجمع الزائد (٢/ ٣١٣): رواه أحمد ورجاله ثقات. .. ولفظه (عَنْ أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - : قال : «كانَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قامَ من الليل كَبَّرَ ، ثم يقول : سُبحانَك اللهمَّ وبحَمدِكَ ، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّكَ ، ولا إلَهَ غيرُكَ ، ثم يقول : اللهُ أكبر كبيرا ، ثم يقول : أعوذُ باللهِ السَّميعِ العليمِ من الشَّيطان الرجيم ، مِنَ هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ». هذه رواية الترمذي . وزاد أبو داود بعد قوله : «غَيرك» ثم يقولُ : «لا إلهَ إلا اللهُ» ثلاثا . وفي آخر الحديث : «ثُمَّ يَقْرأُ».

خير منه، وفرعون: أنا ربكم الأعلى، فما من أحد يقول (أنا)، إلا أن يكون فرعون أو شيطانا، فهذه الأنا ليست لأحد إلا لله جل وعلا: ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [المؤمنون: ٩٦] ، فإن ارتكنت إلى صاحبها جل وعلا قوَّاك على نفسك وشيطانك.

تدبر البسملة ومعانيها

علمت هذا فانتقلت إلى أن تقول: بسم الله الرحمن الرحيم. وملخص كلام المفسرين أن معناها: بسم الله الرحمن الرحيم أبدأ، أو بسم الله الرحمن الرحيم ابتدائي، ومنهم من يقول: ابتدائي بسم الله، أو أبدأ بسم الله، ومحصلة ذلك أن هناك فعلا أو اسما محذوفا تقديره: أبدأُ، أو اقرأُ. وبسم الله أي: كل فعلي الذي أفعله ملابسًا لاسم الله جل وعلا، ملتصقا باسم الله جل وعلا، أي كل الفعل من أوله إلى آخره يلتصق ببركة اسم الله جل وعلا، هذا معناه، أي عمل تعمله إذا به قد صُدر فيه اسم الله جل وعلا.

وهذا المعنى إذن من معاني التدبر، **فكل ما يأتي المرء من فعل لابد أن يكون على هذا الحال: بسم الله، ببركة اسم الله جل وعلا الملابسة لفعلي أبدأ، أو أعمل، أو بسم الله أذهب، أو بسم الله أنام، أو بسم الله أقوم، أو بسم الله آكل، أو بسم الله أمشي، أو بسم الله أسافر، بسم الله جل وعلا كل شيء يأتيه،** حتى دخول الخلاء يقول: بسم الله، وعندما يأتي امرأته يقول: بسم الله، فكأن المرء يقول: ما آتي من قول أو فعل في ظاهري أو باطني إلا وأن يكون هذا الفعل، هذا القول، هذا العمل من أوله إلى آخر، كله ملتصقا بالله تعالى، ملتصقا ببركة اسم الله جل وعلا.

فما يأتي شيئا إلا ويلابسه ببركة اسم الله جل وعلا من أوله إلى آخره، لتتحقق له البركة في ما يأتي وفيما يعمل، وفيما يقول، وأنه لا بركة إلا باسمه المشرف سبحانه وتعالى، وبالأسماء الحسنى كلها.

يقول الأصوليون: كلمة (اسم) الموجودة في قوله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ﴾ نكرة أضيفت للفظ الجلالة، فمعناها يعم، أي: بكل أسماء الله تعالى؛ لذلك قال: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ

ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ ...﴾ [الفاتحة : ١ - ٤] إلى آخر الأسماء الحسنى.

ولفظ الجلالة (الله) قال كثير من العلماء أنه العلم على الذات الإلهية لله جل وعلا، لذلك يوصف ببقية الأسماء، كما قال: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ ...﴾ [الحشر : ٢٢] ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ...﴾ [الحشر : ٢٣] فنصف الله جل وعلا بأنه هو السلام المؤمن المهيمن، أو بأنه هو الملك، أو الخالق البارئ المصور، لذا قالوا: هو اسم الله الأعظم سبحانه وتعالى، الذي لم يتسم أحد به إلا الله جل وعلا، فعندما تقول: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي: أبدأ بجميع أسماء الله الحسنى، فتسمي على عملك بأسمائه الحسنى كلها سبحانه وتعالى، فالمرء حينئذ قد طلب بركة الأسماء الحسنى كلها، في عمله وقوله، وانظر كيف يخرج عملك وقولك في هذا الحال!

إن عدم التدبر لهذا المعنى قد أوقعنا في هذه الحالة من فقدان بركة الأسماء الحسنى، لأن أولى خطوات تحصيل بركة الأسماء الحسنى هو تدبر ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، لأنه عندما يقول المرء ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ...﴾ فإنه يبارك هذا الفعل، لأن هذا الفعل لا يلابس ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ﴾ فقط ولكن يلابس أسمائه الحسنى كلها، فيحل عليه بركة أسمائه الحسنى واسمه الأعظم كذلك، الذي ذكر في أسماء كثيرة من أسماء الله جل وعلا، وانظر كيف تنصلح أحوال المؤمنين بسبب تحصيل تلك البركات، التي تلابس هذه الأعمال، أي أن قولك وفعلك الذي ابتدأته باسم الله تلاصقه وتحتويه بركة الله تعالى وتلازمه، من أوله غلى آخره، هذا معناها الذي ذكرناه في التفسير.

وكأنما المراد أنك إنما تطلب بركة اسم الله تعالى على عملك وقولك، وانك قد استضيء لك طريق تتميز به البركة في أحوالك وأقوالك، إذا كان يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث : (لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ

مَا رَزَقْتَنِي فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ وَلَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْهِ) [٢٨] انظر إلى هذه البركة وهذا المعنى وهذه البصيرة، كأنه يقول: هذا اسم الله تعالى إذا وضع على قليل كثره، وعلى ضعيف قواه، وعلى مريض شفاه، ألم يذكروا الفاتحة عندما قرئت على الرجل اللديغ فشفي، كأنه نشط من عقال فقام [٢٩]، وأنه - أي هذا الاسم - ما وضع على شيطان إلا رده خاسئا، إلى آخر ذلك من

---

(٢٨) أخرجه البخاري (٣/١١٩٦، رقم ٣١٠٩)، ومسلم (٢/١٠٥٨، رقم ١٤٣٤)، ولفظه (عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنِي فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ وَلَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْهِ).

(٢٩) أخرجه البخاري (٢/٧٩٥، رقم ٢١٥٦)، ومسلم (٤/١٧٢٧، رقم ٢٢٠١). .. ولفظه (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانُوا فِي غُزَاةٍ فَمَرُّوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَقَالُوا: هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ ؟ فَإِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ قَدْ لُدِغَ أَوْ قَدْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ . قَالَ: فَرَقَاهُ رَجُلٌ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَبَرَأَ فَأُعْطِيَ قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ . فَسَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: " بِمَ رَقَيْتَهُ ؟ " فَقَالَ: بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ . قَالَ: " وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ " قَالَ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " خُذُوهَا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ فِيهَا بِسَهْمٍ ».

المعاني التي هي بركة اسم الله تعالى، فما بالك إذا كانت بركة الاسم على هذا الحال فما بالك ببركة المسمى بالله تعالى؟!

لقد انفتحت لك بصيرة إذن، تبارك بها أعمالك، بمعنى يبارك لك الرب المولى الكريم جل وعلا، الرحمن الرحيم، يبارك لك أقوالك وأفعالك، في ظاهرك وباطنك، في دنياك وآخرتك، وأنك حينئذ قد رأيت مرتبك من هذه البركة، هذا هو التدبر، وموقعك منها، وأثر هذه البركة على قلبك وعملك، وانظر إلى مرتبك كما يقال، وانظر نفسك أنت ومستواك فيها، ومقياسها لك، وانظر كيف حصلت منها، وعلى أي درجة أنت، والدرجة التي تطلبها كيف هي، وما هي، وكيف سلكت الطريق لتحصيل هذه البركة، إن بركة الاسم من بركة المسمى سبحانه، فإذا كانت بركة اسم الله (باسم الله) لها بركتها إن وضعت على شيء، فأين هذه البركة إذن مما أنت فيه، من أحوالك وقلبك وعملك، ذلك ما تبتغيه تدبرًا من هذا الحال، وعرفت درجتك أنها واحد في المائة مثلا، أو خمسين في المائة، أو ثلاثين في المائة، عرفت أنه قد فتحت لك البركة وقصرت فيها، ولم تلجأ إلى الله تعالى أن يباركك وأن يبارك

عليك، وأن يعطيك من بركاته سبحانه وتعالى؛ شفاء ونورًا وهدى ورحمة ومالاً وولدًا وجاهًا وصلاة وقلبًا وآخرة وقوة، إلى آخر ذلك من بركات الله التي لا تعد ولا تحصى.

والسؤال: كيف تحصل هذه البركة؟ هذه البركة التي اقتضى حالك أن مرتبك فيها مرتبة دنيا، أن مرتبك فيها مرتبة قليلة، لم تصل فيها إلى ذلك الحال الذي قد بينه الله تعالى لك، وهو سبحانه وتعالى ينتظر منك ما يكون من سبب بسيط قليل ضعيف، حتى يبارك لك، وحتى يعطيك ما وعدك به من تلك البركة، **كيف لك إذن بهذه البركة لتحققها؟!** وقفت ضعيفا أمام تصرفاتك لا ترى فيها بركة، لا في وقت ولا في جهد، ولا في مال، ولا في صحة، ولا في ولد، ولا في شيء، علمت أن سكة البركة هي كلام الله، هي كتاب الله، هي الدعاء والتضرع إلى الله، هي عدم الغفلة عن الله تعالى في أقوالك وأفعالك، أنك أنها تأتيها ببركته سبحانه وتعالى، مستعظما تلك البركة، متيقنا يقينا لا ريب ولا شك فيه أنه ستتنزل بركة الله تعالى، لا أن تقول: (باسم الله)

من أين البركة؟ كيف تأتي؟ كأنك لا تستيقن في أن ذلك من الله حق، وأن ذلك من الله وعد، وأن ذلك من الله واقع سبحانه وتعالى، لا تردد فيه ولا مرية.

إن المعاملة مع الله تعالى على الشك وعدم الثقة فيما عند الله تعالى هو من أهم الأسباب في أن المرء لا يحصل من الله تعالى شيئا، ولا من بركته شيئا، إن كنت متيقنا يقينا لا شك فيه أن تقول: باسم الله، وتعلم ذلك، ولكن هذه الأمور تحتاج إلى ذلك القلب، الذي إن قال باسم الله جعلت فيه البركة، فتعود حينئذ على قلبك، وتقول: إن مستوى قلبك على مستوى بركتك، ومستوى قلبك على مستوى عمل قلبك وعمل جوارحك، وتحتاج حينئذ أن ترفع هذا المستوى، ليرتفع هذا اليقين، لتعلو تلك البركة، لترى أثر ذلك على قلبك وعملك.

علم المرء كيف أن البسملة مقياس له في البركة، وعلم طريق تحقيق هذه البركة، وعلم كيف يكون مع الله تعالى على ذلك الحال الذي يحقق تلك البركة.

كان الصحابة رضي الله عنهم يقرءون الفاتحة فيشفى بها المريض، كما جاء في حديث سيد الحي الذي لُدغ، كما يقول: (**أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانُوا فِي غُزَاةٍ فَمَرُّوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَقَالُوا: هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ ؟ فَإِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ قَدْ لُدِغَ أَوْ قَدْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ . قَالَ: فَرَقَاهُ رَجُلٌ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَبَرَأَ فَأُعْطِيَ قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ . فَسَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: " بِمَ رَقَيْتَهُ ؟ " فَقَالَ: بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ . قَالَ: " وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ "**)[٣٠] فكاد أن

---

(٣٠) أخرجه البخاري (٢/٧٩٥ ، رقم ٢١٥٦) ، ومسلم (٤/١٧٢٧ ، رقم ٢٢٠١). .. ولفظه (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانُوا فِي غُزَاةٍ فَمَرُّوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَقَالُوا: هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ ؟ فَإِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ قَدْ لُدِغَ أَوْ قَدْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ . قَالَ: فَرَقَاهُ رَجُلٌ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَبَرَأَ فَأُعْطِيَ قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ . فَسَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: " بِمَ رَقَيْتَهُ ؟ " فَقَالَ: بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ . قَالَ: " وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ " قَالَ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " خُذُوهَا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ فِيهَا بِسَهْمٍ ».

يموت من سم العقرب فقرأ عليه الفاتحة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟**).

فلما كانوا متحققين بالتدبر، حلت عليهم بركة الأسماء الحسنى، وبركة ملاصقتها لكل ما يأتون من أعمال وأقوال في ظاهرهم وباطنهم، فتحققت لهم تلك البركات التي لا يمكن أن يتخيلها العقل أو أن يأتي بها واقع فيما نعيش فيه اليوم.

هذا ما ينبغي أن نبدأ في العود إليه، وفي تدبره، ويعلم المرء يقينا حين يضع يده على شيء أو يقرأ شيئا أن البركة تحل به عندما يلابسه بسم الله الرحمن الرحيم جل وعلا، ليكون هذا التدبر في محل اهتمام أهل الإيمان، ويستقر في قلوبهم أنه يبارك كل عمل بأسمائه الحسنى كلها، وأن أسماءه الحسنى هي الطريق الأول للتعبد، وهي طريق معرفة الرب الذي يبارك كل شيء.

وإن كان هذا ما يحل من بركة قوله: ﴿ **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ** ﴾ أو من قراءة الفاتحة، فقد علمنا أن كتاب الله كله مبارك، كما أشرنا في قوله تعالى:﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ**

﴿...لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ...﴾ [ص : ٢٩] أي كل شيء فيه بركة، ونحن نقرأ القرآن ونتناوله هكذا وانتهى الأمر، ولا يتخيل المرء أن فيه البركة وفيه الشفاء وفيه الهدى، وفيه ما لا يتوقع المرء أن يحدث له من الرب سبحانه وتعالى، ومن تصاريفه ومن شأنه، فلا على باله، ولا يظن أبدًا أنه يمكن أن يبارك الله له، وأن يبارك في وقته وجهده وعمله، وأن يشفي أمراضه وعلله، وأن يشرح صدره، وأن يستجيب دعاءه، وأن .. وأن.. من الله تعالى، وكل ذلك ليس على بال المرء لأنه لم يتدبر تلك المعاني المقربة له إلى الله جل وعلا.

هذه إذن دعوة إلى **أن نغير من هذا الواقع برحمة الله تعالى،** ببركة أسمائه، بالإقبال عليه، بمعرفته، بمحبته، باليقين والثقة فيما قال سبحانه وتعالى وفعل جل وعلا، تتغير الأحوال حينئذ، ويحس المرء بهذه البركة، ويحس المرء بهذه المعرفة بالله تعالى، ويحس بوجود ذلك بيقينه على الله، وحسن توكله عليه.

تدبر قوله تعالى: الحمد لله رب العالمين

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] قال المفسرون، الحمد لله أي: الشكر لله، وقال المحققون منهم: الحمد لله، أي : الثناء لله رب العالمين. والحمد هنا مُعرفة تعريف يسمى تعريف الجنس ، فعندما نقول ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي: كل الحمد لله تعالى، في الدنيا والآخرة كما قال: ﴿ ... وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ ... ﴾ [سبأ : ١] وقال جل وعلا: ﴿ ... لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] أو كما جاء في الحديث: (لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ) (٣١) أي له الثناء جل وعلا.

---

(٣١) إشارة إلى ما أخرجه مسلم (١/٣٤٧ ، رقم ٤٧٧) .. ولفظه (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ « رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ أَهْلَ

وقد قال العلماء في كيفية تقديم الحمد في هذه الآية ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على لفظ الجلالة (الله)، على خلاف آيات أخرى قال فيها سبحانه: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الجاثية : ٣٦] لأن ابتداء هذا القرآن إنما هو ابتداء التنزيل، ابتداء معرفة الله، ابتداء طريق الحق، ابتداء طريق الهداية، ابتداء طريق النجاة الذي جاء لنجاتكم ومعرفتكم بربكم في الأولى والآخرة، فكان افتتاحه بالحمد على هذا التنزيل الذي ستقرءونه وتبتدءون به، فلهذا العارض قُدم الحمد على لفظ الجلالة ، فكان تقديم الحمد اهتماما بما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في معرفتهم بربهم، وشكرهم لهذا الذي ابتدأه بالحمد، وهو القرآن الكريم، والنبي صلى الله عليه وسلم المبلغ له عن الله جل وعلا، الذي يأخذهم إلى نجاتهم في الدارين، وإلى سعادتهم

الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»).

في الدارين، وإلى كل ما أعد الله لهم في الدارين من نعيم وسعادة سبحانه وتعالى.

أما الفارق بين الحمد والشكر فقد اختلف العلماء فيه كما ذكرنا، قال بعضهم: الحمد هو الشكر، وقال الآخرون: الحمد أعم من الشكر والشكر أعم من الحمد، والحمد أخص من الشكر والشكر أخص من الحمد. أي أن المرء يُحمد لصفاته الذاتية ويحمد لإنعامه وإحسانه، فيُحمد لصفاته مثل الشجاعة والعدل، ويحمد كذلك لإحسانه وبذله الذي يعطيك إياه.

والمولى جل وعلا يحمد لصفاته الذاتية، فهو الحي والقيوم والملك والجبار والمتكبر والسميع والبصير، كل ذلك يُحمد له الرب سبحانه وتعالى. ويُحمد كذلك على العطاء والمن والنعم والآلاء، التي أسداها إليك، فهذا هو الحمد بمعنى الثناء، والحمد مخصوص باللسان فقط.

أما الشكر فلا يكون إلا على الإحسان والعطاء، فيكون أخص من الحمد، فلا تقول: شكرته[٣٢] لشجاعته، وإنما تقول: شكرته لإحسانه ولآلائه ونعمه، وتشكره بلسانك وتشكره بفعلك، وتشكره بقلبك، فالشكر إذن أعم من الحمد في أنه يكون باللسان والقلب واليد، كما قال بعضهم:

وما كان شكري وافياً بنوالكم ولكنني حاولت في الجهد مذهبا

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

والمولى سبحانه وتعالى له الحمد كله، لاتصافه بالصفات العليا والأسماء الحسنى، وكذلك لآلائه ونعمه وعطائه الذي لا ينفد سبحانه وتعالى، فله الحمد على ذلك كله، وله الشكر أيضًا سبحانه وتعالى.

والحمد لله تعني أمرين: **أن الحمد كله لله، وأن الحمد مختص بالله سبحانه وتعالى لا بغيره.** بمعنى: أن الحمد عامة كله لله، والحمد عامة كله لا يكون إلا له سبحانه وتعالى، والحمد على

---

(٣٢) يقال: شكره وشكر له، وشكر له أفصح من شكره.

صفاته العليا وأسمائه الحسنى، وعلى عطائه ومنه وكرمه وجوده وإحسانه سبحانه وتعالى، وانظر كيف يتحقق المرء بهذا المعنى من التدبر في معاني الحمد، وينبغي أن يلاحظ المرء موقع هذه الآية من نفسه، وأثرها على قلبه وعمله، وكيف يوقع هذه المعاني على قلبه يستشفي بها مما هو فيه.

وقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ كما يقول علماء اللغة، إنما هي على معنى الخبر وعلى معنى الإنشاء، أي: يخبر الله تعالى أن الحمد كله له سبحانه وتعالى، وكذلك يأمر عباده بأن يحمدوا ربهم سبحانه وتعالى، فعندما يقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي: علمت أن الحمد كله لله، فأنت مكلف بأن تحمده سبحانه وتعالى كذلك، لأنه عندما أخبرك أن الحمد له أخبرك في نفس الوقت أنك ينبغي أن تأخذ حظك من هذا الحمد فتكون أحمد الناس له، وأمة النبي صلى الله عليه وسلم هم الحمادون كما ذكر عنهم، والنبي صلى الله عليه وسلم أعظم الخليقة حمدًا لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ ... رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ **فالرب هو الذي يربي عباده ويسوسهم حتى يصلوا إلى مرتبة الكمال بالتدريج**. وهو سبحانه خلقهم ورعاهم ودبرهم ورزقهم وقواهم وأعطاهم ما يكون به صلاحهم، ثم هو يسوسهم ويأخذ بأيديهم لأن يصلوا إلى مرتبة الكمال في الأولى والآخرة ، فبكونه ربا سبحانه وتعالى يقوم بذلك.

و(العالمين) جمع عالَم، والعالم اسم جنس فيكون معنى: ﴿ ... رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي رب جميع العوالم سبحانه وتعالى ، أي رب عالَم الإنس، وعالَم الجن، وعالَم النبات، وعالَم الحيوان، فهو رب العالمين، فيما يكون دون الرب سبحانه وتعالى.

والمعنى الثاني للرب **أنه سبحانه وتعالى هو مالكهم المتصرف فيهم سبحانه وتعالى**. ولذلك لما قال: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ...﴾ أي الثناء له جل وعلا، فكأن المعنى: ، الثناء لرب العالمين. فالثناء له لكونه سبحانه وتعالى إلها معبودا، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وله النعم الجزيلة، وكذلك الثناء له لأنه أعطى كل هذه النعم

والآلاء إيجادًا وإمدادًا ، ويربي عبده عليها حتى يصل إلى مرحلة الكمال في دنياه وفي أخراه.

فيكون الحمد متنزلاً على قلبك وجوارحك، ويكون الشكر باديًا عليها لله تعالى، فلا تتخلى عنها، ولا ينفك الحمد عنك أبدًا، أي: أن تكون حامدًا لله تعالى على كل أحوالك، في الظاهر والباطن، بلسانك وقلبك وأعمالك.

فإذا سأل السائل: كيف تكون حامداً لله تعالى؟ أي: أن تكون مثنيًا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، لا تنفك عن ذلك أبداً، وأن تكون شاكرًا له وحامداً على ما أولاك من نعم، فكما أنك متقلب في نعمه سبحانه وتعالى لا تنفك عنها، فلا ينبغي أن تنفك عن حمده وشكره أبدًا، وحتى إن كنت في مصائب فأنت في نعمٍ مقابلة لها، فإن قطعت رجل المرء مثلاً فقد بقيت له رجل أخرى، وإن أُخذ ولده فقد بقي له ولدان أو ثلاثة، وإن أُخذ ماله فقد يعود لك مالك غدًا، فلا تنفك عنك نعمه أبدًا، فحينئذ لا تنفك عن أن تكون حامدًا له شاكرًا له جل وعلا.

ولا تنفك يمينًا وشمالاً عن أن تحمده بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فهذه لا اختيار للمرء إلا أن يحمده بها؛ تقربًا له، وإلا أن يثني عليه بها دعاء وطلبا ودعوة وتوحيدا ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴾ [الأعراف : ١٨٠].

لذلك إذا نظر المرء إلى حاله وجد هذا التدبر يحمله على الثناء على الله تعالى، ويضيء له طريقه أن يكون فردًا جديدًا يسمى الحماد لله تعالى، فهو في كل وقت يحمد ربه، يحمد ربه على كل نفسٍ يخرج ويدخل، لأنه كل نفس، له فيه مدة حياة، يعبد الله فيها، يتوب إلى الله تعالى فيها، يستغفره فيها؛ بحيث لو مات اليوم لتمنى هذا اليوم أن يرجعه إلى الله تعالى، وإن له في كل شيء – حتى في مصائبه التي يأتيها – له فيها نعم من الله تعالى، يرده بها إلى الله، فيكفي أنه قد أصابك بهذه المحنة لتكون منحة لتحمده عليها.

تحمده كذلك أن وفقك وجعل قلبك مخلصًا إلى الله في توحيده، وساق قلبك ولسانك وجوارحك لتعبده لتحمده لتشكره، لتعود إليه،

لتدعوه، لتعود إلى ذكر الله ودعائه والتضرع له بأن يشفيك، وأن يرفع عنك، وأن يعطيك، وأن يسدد طريقك، تحمده لكل هذه المعاني وغيرها.

إذا انتفت كل تلك المعاني في حقك لم تنتفِ معاني الحمد في أسمائه الحسنى وصفاته العليا جل وعلا، فأنت غير منفك في كل أحوالك في الظاهر والباطن عن الحمد لله تعالى، إذا ما حمدته سبحانه وتعالى وشكرته فإنه بثنائك عليه هو يصلي عليك جل وعلا، كما قال: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ** ...﴾ [الأحزاب : ٤٣] وكذلك إذا شكرته ، قال: ﴿ ... **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** ...﴾ [إبراهيم : ٧].

فأنت محتاج إليه في زيادة النعم، ومحتاج إليه في نور القلب وتوحيده بالثناء على الرب بأسمائه وصفاته، وأنت محتاج إليه بدفع النقم التي تنزل عليك، وأنت محتاج إليه في حفظك وأن

يتوب عليك، وأن يغفر لك، وأن يقيمك على طريق الاستقامة، كل ذلك مجراه الحمد والشكر لله تعالى.

لذلك قال الله تعالى في الشيطان: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف :١٦- ١٧]، فكل هم الشيطان إذن ألا يكون هناك شاكر لله، حامد لله؛ لأنه بالحمد والشكر لله تعالى يترقى في معرفة ربه، بالشكر يزداد من نعم الله، كلما ترقى في معرفة الرب، وأضاء له قلبه، واستنار له طريقه، وكلما شكر ربه فازدادت النعم من صلاة وعبادة وشكر وغيره لم يتمكن منه الشيطان، فلا يمر إلا الشاكرون القليل، ولذلك ينبغي للمؤمنين المتقين، أن يكونوا حامدين شاكرين في كل أحوالهم.

والأمر التالي هو **تصريف نعم الله تعالى في مرضاته، بأن يكون الحمد والشكر مترجمًا إلى هذا الحال الحسن**، بأن يوفر المرء هذه النعم كلها لمرضاة الله تعالى، أي أن يستخدم هذه النعم التي أنعمها

عليه المولى سبحانه وتعالى لمرضاته وشكره، لا لمعصيته وللغفلة عنه والانشغال بالنعم عن المنعم سبحانه وتعالى وهذه حالنا، إذا أُنعم علينا وفتح علينا باب النعم فإذا بالطغيان والبغي، والغفلة بهذه النعم عما هو مراد من تصريفها في مرضاة مسديها سبحانه وتعالى.

وتصريف النعم في مرضاته، يكون فيما عرَّفك الحق بنفسه وبأسمائه، وأنعم عليك بشيء من معرفته، كان لا بد أن تصرف هذه التعريفات الحق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي تحبيب الناس في الله تعالى، وفي إضاءة هذا الطريق للخلق السائرين إلى الله جل وعلا، في زيادة الترقي للوصول إلى الله تعالى، في زيادة التعبد لمعرفته سبحانه وتعالى، في إنهاك هذا الجسم والبدن في القيام بحق هذه النعم، والشكر بهذا الحمد لله سبحانه وتعالى.

فالحامد الشاكر لا ينفك عن أمرين في حمده وشكره، الأول: أنه حامد لربه على كل أحواله، لا يظهر منه تأفف، ولا شكوى، ولا غيره،

وإنما هو حامد لربه، إن لم يحمده على هذه النعم حمده على أسمائه وصفاته وتعريفه به، وأخذه إليه، ووقوفه على بابه، فهذه أعظم النعم التي يحمد عليها، والثاني هو اتعاب جسده في القيام بحق هذه النعم.

وإذا ما تدبرنا ذلك المعنى المهم، بأن الحمد كله لله، أي أن صفات الله تعالى وأسماءه كلها حسنى تستحق الحمد لذاته، والثناء والمجد والتعظيم والإجلال والمهابة والخوف والخشية، وأن الشكر كله لله، ولما كان الشكر له دل على أن كل النعم التي أنعم الله عليك بها إنما هي من الله تعالى، وينبني على ذلك أن تستشعر أن الله سبحانه وتعالى هو صاحب النعم ومسديها ومواليها ومعطيها، وأنه أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وفي هذا الحال إذا حاول المرء أن يعد نعم الله عليه ليشكرها، فلن يستطيع كما قال: ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ** ﴾ [النحل: ١٨] ولن يستطيع أيضًا إحصاء أسماء الله تعالى التي تدل على مطلق الكمال ليثني بها عليه، كما جاء في الحديث: (**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ**

فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ) (٣٣).

فالمعنى الأول: المطلوب تدبره عندما يقف المرء ويقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾: **أن احمدوا الله رب العالمين، أي لا بد أن تحمد الله وأن تشكره وأن تعلم أنك مهما بلغت في الحمد والشكر فلن تحصيه أبدًا**، ويدل على ذلك أنك تقول: (الحمد لله رب العالمين) في كل ركعة تؤديها، فإنك تقولها الآن وغدًا وبعد غد

(٣٣) أخرجه أحمد (١/٤٥٢ ، رقم ٤٣١٨) قال الهيثمي (١٠/١٣٦) : رجاله رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني ، وقد وثقه ابن حبان . وابن أبى شيبة (٦/٤٠ ، رقم ٢٩٣١٨) ، والحاكم (١/٦٩٠ ، رقم ١٨٧٧) وقال : صحيح على شرط مسلم .. ولفظه (عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:مَا أَصَابَ مُسْلِمًا قَطُّ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ بَصَرِي، وَجِلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إلا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلا نَتَعَلَّمُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ:بَلْ بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ).

وأمس وكل وقت، وكل حمدك وكل حمد الحامدين يتكرر كل يوم وكل ركعة وكل صلاة ومع ذلك هل تراهم بلغوا حمد الله؟ أتراهم بلغوا شكر نعمه؟ كلا، لم يبلغوا ولن يبلغوا !

والمعنى الثاني: أنك مأمور بالشكر في كل آنٍ وحين لأنك مهما بلغت من الحمد، فلن توفي بالحمد لله تعالى، ومهما بلغت من الشكر فإنك لن تشكر الله تعالى، فأنت في كل حين مطالب بالحمد وفي نفس الوقت أنت مقصر في تحصيل هذا الحمد، ولكنك تستمر في طلبه كل حين مع استشعارك بالعجز عن أن تحمد الله كما يستحق سبحانه وتعالى.

لذلك يقول العلماء: إذا وصلت إلى هذه الحالة - أنك تحمده دائمًا في كل صلاة تحمده وخارج الصلاة تحمده وعند كل نعمة تحمده وعند كل اسم له سبحانه لأنه طلب أن تكون حامدًا له على كل وقت، وأن يكون الحمد على لسانك وقلبك وجوارحك وأن يكون الشكر على لسانك وقلبك وجوارحك، وفي كل حال من أحوالك تحمده وتشكره، مع علمك أنك عاجز

عن إتمام الحمد وعلمت أنك بأسمائه الحسنى لن تحمده، وبآلائه ونعمه التي يبلغها الحصر: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨] لن تشكره ووصلت إلى العجز عن الشكر مع تمام الشكر الذي يمكن أن يصدر منك إليه، حينئذ تدخل في زمرة الحامدين له الشاكرين له، بأن تكون حمّادًا لله تعالى شاكرًا له.

خرجت من التدبر لهذه الآية بهذا المعنى: **أنه ينبغي أن تكون شاكرًا حامداً عالماً بعجزك عن الشكر، وأنك إن وصلت إلى هذا الحد من العجز عن الشكر علمت أنه حينئذ قد بلغت أن تشكره**، كما ورد عن موسى عليه السلام: (**يا رب إن بلغت رسالاتك فمنك، وإن صليت فمنك، وإن تصدقت فمنك، كيف أشكرك؟ قال: الآن شكرتني**) [٣٤]، لما أثبت عجزه عن الشكر لله مع أنه يشكره في كل حال إذا به يقول: نعم الآن شكرتني.

---

(٣٤) أخرجه أحمد في كتاب الزهد (٦٧/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤٠/٦) ، ولفظه (عَنْ أَبِي الْجَلْدِ، قَالَ: " قَرَأْتُ فِي مَسْأَلَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ قَالَ: كَيْفَ لِي أَنْ أَشْكُرَكَ، وَأَصْغَرُ نِعْمَةٍ وَضَعْتَهَا عِنْدِي مِنْ نِعَمِكَ لَا يُجَازَى بِهَا عَمَلِي كُلُّهُ، قَالَ: فَأَتَاهُ الْوَحْيُ أَنْ يَا مُوسَى: الْآنَ شَكَرْتَنِي).

بعد هذا المعنى للتدبر أصبح قولك: (الحمد لله رب العالمين) أنك تدعوه في كل صلاة بأن الحمد له سبحانه وتعالى فتذكر هذه المحامد والآلاء بقلبك وتتحدث بها بلسانك، وصرفتها في مرضاة الله تعالى مع علمك بأنه كلما وفقك للحمد سبحانه وتعالى فإنك تحتاج إلى شكر على هذا التوفيق، فإنك إن شكرت الله تعالى فهو الذي وفقك لشكره فيحتاج لشكر على هذا الشكر، ويحتاج لشكر على الشكر، فإذا بك تصل إلى العجز عن الشكر، وإن لم توفق لذلك فمعناه أنك غير موفق عند الله تعالى.

والنقطة التالية التي يتنزل بها المعنى على قلب المرء، أن يرى مرتبته من الآية، بأن تكون هذه الآية مقياسًا له في علاقته بالله تعالى في معنى الشكر والحمد، لينظر حينئذ ما هي مرتبته من هذا الشكر وما هي مرتبته من هذا الحمد والثناء لله تعالى بقلبه ولسانه وجوارحه، وهذا التدبر الذي يحمل المرء على التحقق بما طلبه الله تعالى منه في هذه الآية، بأن يحمد الله تعالى ويرى مرتبته، ما هي مرتبتك في الشكر والحمد، ما ميزان الآية بالنسبة لك ؟ ما موقعها منك؟ ما أثر ذلك على قلبك وعقلك وعملك ولسانك وجوارحك ؟

كم درجة من المائة أخذت في هذا الشكر ؟ عددت نعم الله تعالى عليك، مائة نعمة مثلاً، نعمة الإسلام والإيمان والطاعة والصلاة والذكر والقرآن والصحبة والأخوة والمال والولد والجاه والعين والصحة، كل هذه النعم ..، أين مرتبتك من شكر كل نعمة على حدة؟ أين الشكر العام على هذه النعم أو كم درجة أخذت من المائة في هذه الحالة؟

إذا علم المرء مرتبته من حمد الله تعالى وشكره، علم أنه ليس بحامد ولا شاكر! فلا هو نظر إلى ما هو فيه من نعم، ولا إلى عظمة الله تعالى وما يستحق عليها من الحمد بغير نعم. وذلك لأن المرء إذا أراد أن يشكر الله تعالى على النعم لابد أن يحصي هذه النعم الذي هو فيها، وهو لا يستطيع إحصاءها فكيف يشكرها؟ وهذه الآية -كما ذكرنا - قد تصدرت القرآن الكريم حتى يعلم المرء إن النعم التي اسداها الله تعالى لك أهمها هذه النعمة: نعمة تنزيل الكتاب، وإرسال الرسول، نعمة هذا القرآن الذي به قد اهتديت وعرفت ربك وتعبدت، فهو سبب نجاتك، وهو سبب

سعادتك في الأولى والآخرة. فما موقفك من شكر هذه النعمة، من شكر اتباع الرسول من شكر الثناء على الله، من القيام بطاعته، من شكر الحديث بهذه الطاعة، مرتبتك فيها، أين هي؟

ذلك معنى أن تنزل هذه الآية على نفسك، وأن تتدبر في هذه الآية وكيف وصلت في تحقيقها، وكيف كان أثرها في قلبك وعملك، وأين منزلتك من تحقيق هذه الآية ومن معناها الكريم الذي ينبغي أن يكون هو معنى خطاب الله لك. هو سبحانه يخاطبك بهذا الكلام، وأنت مخصوص به، وأنت المطالب بالمسارعة إلى تنفيذه وإلى امتثاله كما كان الصحابة يفعلون. كانت تنزل الآيات الخمس فيحفظونها ويعملون بها ويتدبرون فيها، ويعلمون مطلوب الله تعالى فيها ثم يسيرون إلى تحقيق ذلك.

وإذا نظرنا إلى هذه الآية وقلنا ننزلها على أمراض القلب وعلى أدوائه وأن نرى فيها شفاء لأنفسنا نظرنا إلى العكس، وهو: كيف نزلت هذه الآية من آيات الحمد على حالنا السيئ من

التشكي ومن الحزن على ما فات ومن النظر إلى قلة النعم التي يرى المرء أنه فيها وإلى مطلوبه من الدنيا والآخرة !

نزلت هذه الآيات لتقول لك: مهما كنت فيه من حال ومن شكوى ومن هم ومن حزن ومن مرض ومن كذا ومن كذا، فيكفيك أنك في نعم أكثر ونعم أجل ونعم أعظم، فهل أديت حق هذه النعم أو على العكس؟ هل قابلت هذه المصائب والشكاوى والبلايا التي أنت فيها والتي تظن أنك قد أصبت بها إصابة عظيمة، هل نظرت لها هذه النظرة التي تخرجك عن أن تشكو الله تعالى مما حل بك، لتشكره على ما لطفه فيما أنزله إليك سبحانه وتعالى؟ هل خرج المرء إذن عن هذا الحال السيئ في عدم الرضا بالله تعالى، والرضا بما قسمه الله تعالى، والحال السيئ الذي لا يقابل تلك النعم بالحمد ؟!

لابد أولًا أن يكون هذا المعنى من معاني التدبر هو النازل في فهم تلك الآيات التي يوجهها الله تبارك وتعالى للمرء، ثم لابد أن يرى المرء نفسه شاكرًا لمن أسدى إليه هذه النعم، والذي كان سببًا لوصولها إليك من الله - تعالى - فإنك لا تحمد الله ولا تشكره إلا أن تشكر من أسدى إليك هذه النعم كذلك. قد

خرجت من هذه الآية بهذه المعاني إذن التي أشرنا إليها والتي ينبغي أن تكون على عقلك وبالك.

وخرجت كذلك بتطهير قلبك ولسانك من الشكوى والتذمر وعدم الرضا عما أنت فيه ومحاولة الخروج عما قضى الله سبحانه وتعالى وقدّر، وأن تكون راضيًا بذلك منشرحًا صدرك ببقية النعم وأن تعرف أن هذه الأمور التي تشكو منها والتي تتضايق منها وتتذمر منها وتعترض عليها في قضاء الله تعالى وقدره بقلبك ولا تصرح بلسانك، هذه كذلك تكون منحة في حقك من الله تعالى ليست محنة إذا قلت: الحمد لله ري العالمين، إن أخذ فقد أعطى وإن أمرض فقد أصح وإن كذا فهو كذا، فقد أغرق بالنعم وأعطى، فإنك حينئذ تكون قد انقلبت على هذه الحالة وانقلبت هذه المحنة في حقك إلى منحة.

إذا نزلت هذه المحن على المرء ولم يتذمر ولم يشْك من القضاء ولم يقل مثلاً: أهذا وقته؟ أيقع لي هذا؟ قد تحملت هذا، فيقع هذا أيضا؟ وغير ذلك من جنس هذه العبارات.... كلا وإنما يجب على المرء أن يقول: نعم هذه قضاؤه. وهذا إذا نزل فإن

قضاء الله سبحانه وتعالى هو الأحسن وهو الأفضل، وإن النعمة فيه والشكر له سبحانه وتعالى.

فمهما قابل هذه الأمور بالصبر وقول الحمد لله تعالى، وأن ينظر إلى أن هذه الأمور فيها رحمته وأنه لا يعلم الحكمة فيها، وأن الحكمة فيها له سبحانه وتعالى يقول تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١] لم تقل الآية: (ما كتب علينا) وإنما قال: ﴿ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١] لتدل على أنه كتب لنا الخير سبحانه وتعالى، وما يريد به إلا صلاح هؤلاء، لذلك إن شكرت حينئذ، وإن صبرت انقلبت هذه المحنة التي تظنها في ظاهرها انقلبت منحة من الله تعالى لك.

تدبر معاني اسمي الله : الرحمن الرحيم

وقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٣] مرتبط كما ذكرنا بقوله:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولارتباط المعنى نشير سريعا إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة : ٣]، فالرحمن أبلغ في الرحمة من الرحيم، ومقتضى

الرحمة أن يقوم هذا الرحيم برفق المرحوم، وإعانته على الشدائد، ودفع المشاقّ عنه، والإحسان إليه، والله تعالى في الغاية القصوى من ذلك، فإذا قلنا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ﴾ [الفاتحة : ٢- ٣] فلا زلنا نحمد الله تعالى، ونثني عليه جل وعلا بأسمائه الحسنى، لأن أصول الأسماء الحسنى هي الله والرب والرحمن، وهي التي تجمع كل المعاني التي يُسبح الرب بها، وبها ينزه ويقدس، وعليها يحمد ، ويثنى عليه سبحانه وتعالى.

فيكون المعني: الحمد لله الرحمن الرحيم. فالله سبحانه وتعالى يثني على نفسه بكونه رحيما، ويطلب منك أن تثني عليه بها وأن تشكره عليها لتحقق ما تستطيع من هذه الرحمة التي تحمد الله تعالى وتشكره عليها، فإن كنا قد حمدناه كونه منفردًا بالألوهية والعبادة والأسماء الحسنى والصفات العلى، ومنفردًا بالربوبية أي بالنعم التي ينعمها علينا ويكملها لنا حتى يصل المرء بالتدريج إلى الكمال الإنساني من الله تعالى، إذن ذلك كله من محض رحمته

سبحانه وتعالى، فحمدناه حينئذ وشكرناه لتلك الرحمة التي يعامل بها المؤمنين ويعامل بها كل الخلق،﴿ **وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا** ﴾[الأحزاب: ٤٣] فهو رحمن الدنيا والآخرة .

ومعنى ذلك أن الله جل وعلا لما أنبأهم بأنه هو المحمود الذي يثني عليه بهذه الأسماء الحسنى والصفات العليا، وبأنه هو الذي يربيهم ويحفظهم، ينعم عليهم، ويعطيهم كل هذه الآلاء ويرقَى بهم جل وعلا في مدارج الكمال في الدنيا والآخرة، **فإن كل ذلك كان برحمته سبحانه وتعالى،** فكل ذلك كان على سبيل الرحمة بهم.

فما أنزل الله تعالى لهم من تلك النعم في الدنيا إلا برحمته سبحانه وتعالى، وما بين لهم طريق التوحيد وطريق السير إلى الله تعالى إلا برحمته لهم كذلك، قال جل وعلا: ﴿ **... وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾** ﴾ [الأحزاب : ٤٣] وما هيأ لهم ويسر لهم أسبابهم في الدنيا إلا برحمته جل وعلا، وما رفع عنهم الحرج ويسر لهم الأمور في عبادته ودينه وفي معاملاتهم وأخلاقهم إلا

برحمته جل وعلا، فما من شيء في الأولى والآخرة إلا كان برحمته سبحانه وتعالى.

إن الله جل وعلا قد رحم المؤمنين ورحم الكفار ، وخلق الجنة برحمته والنار برحمته، وخلق الخلق برحمته، وأنزل الكتاب برحمته، وأرسل الأنبياء برحمته، وعلم الناس طريقهم إلى الله تعالى برحمته، كل ذلك برحمته جل وعلا، وعليه فإن له الثناء لكونه الرحمن الرحيم الذي منه الرحمة سبحانه وتعالى.

والتدبر في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ﴾ ، يحمل على المرء على التدبر فيما أصابه من رحمة الله تعالى بإرسال الرسل وإنزال الكتب ووضع الإيمان والتوفيق في قلبه، وفي اختصاصه بالصلاة، والعبادة، والرحمة، والذكر، واختصاصه في خاصة نفسه باختصاصات لا حصر لها، فكل ذلك من رحمته سبحانه وتعالى بالمؤمنين، فعلمت مدى رحمته سبحانه وتعالى بك في كل حال في الدنيا والآخرة، فله الحمد كله سبحانه في الأولى والآخرة.

فإذا بك لما رأيت رحمة الله النازلة عليك، سكن قلبك، وانطلقت جوارحك في العبادة، وعلمت أنك في رحمة من الله تعالى ، يتمناها كثير من المؤمنين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد: ٢٨]، فكل شيء من الله تعالى إنما هو لرحمتك.

فإرسال الرسل إنما هو لرحمتك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] و ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣] وتدبرك لهذا المعنى يحملك على التفكر: هل أخذت حظك من هذه الرحمة كما أخذت حظك من الثناء والحمد فدخلت في زمرة الشاكرين الحامدين وتركت سكة القانطين المتذمرين المعترضين على الله تعالى الشاكين الباكين المتعبين فدخلت في هذه الرحمة وأخذت منها حظك، وحصلت على كفل من هذه الرحمة يكون سببًا في سيرك إلى تعالى مستقيماً ثابتًا ؟

هذا هو الذي تنظر فيه، ما قيمة الرحمة التي نزلت إليك؟ ما موقعك من هذه الرحمة؟ ما نسبة الرحمة التي أنت فيها، ثم نظرت إلى أنك متطلع إلى رحمة أكثر من ذلك من الله تعالى وإلى رأفة منه أعظم من ذلك، وأنت متطلع في كل وقت؛ لأنك تشكره في كل حين وكل صلاة وكل ركعة على أنه الرحمن الرحيم الذي تنتظر رحمته وتطلب رحمته وتستزيد من رحمته سبحانه وتعالى، وكل حال من أحوالك تود أن يكون سببًا لهذه الرحمة، وتعلم أنه كما قال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الأعراف: ٥٦].

فعندما تقول: نعم أنا أود أن أكون في رحمته سبحانه وتعالى، وإن ما أنا فيه من رحمة الله تعالى التي أثني بها عليه، لم أحصل منها إلا شيئًا قليلاً، ترى نفسك وحالك: هل أنت في الرحمة أم أنت في محق البركة وقلة الوقت والجهد وفي الغفلة والتقصير والتفريط والكسل والتواني وكذا وكذا ؟ وإذا انتقلنا إلى المعصية والمكروه وغيره، أين الرحمة التي حصلتها إذًا، حصلت هذه الرحمة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ كِفْلَيْنِ مِن

رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٨].

فعلمت مرتبتك من هذه الرحمة فحاولت حينئذ أن تأخذ من الرحمة ما ينزل على أمراض قلبك وعللك فيزيحها ويخرج هذه العلل، وأن تدعوه بكونه رحمانًا ورحيماً ليرحمك بكونه الرحمن الرحيم، وتتوسل إليه بأسمائه وصفاته لينزل عليك من رحمته.

كيف تنال من الرحمة قسطًا عظيماً كبيرًا؟!

السبب **الأول** الذي به تأخذ هذه الرحمة وتأخذ منها قسطًا عظيماً كبيرًا هو أن تأخذ في أسباب الرحمة **بأن ترحم الخلق** ، إذ إنك إن ترحم من في الأرض يرحمك من في السماء سبحانه وتعالى، فتتصف حينئذ بصفة من صفات الله أن تكون رحيماً في دعوتك وفي كلامك وفي علاقتك، في أخذك وعطائك في كل شيء، قد تركت المخاشنة، وقد تركت الصلابة والشدة والعنف وسوء الأدب، وغير ذلك من الأخلاق السيئة التي لا تنم عن الرحمة التي تودها من الله تعالى.

أما السبب الثاني المهم في سكة تحصيل الرحمة أن تسلك سبيل المحسنين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] والإحسان هو إحسان مع الناس وإحسان مع الله تعالى، والإحسان هو الدرجة العليا من الدين، كما جاء في الحديث: (**الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**)[٣٥] أي أن تبلغ في أعمالك درجة الإحسان، في صلاتك وزكاتك وفي صدقتك وذكرك وقرآنك وقيامك، وفي كل أعمال دينك ودعوتك وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر والقيام بمصالح الدين والإسلام أن تبلغ درجة الإحسان أو أن تسير إليها أو أن تقترب منها، وبقدر قربك من ذلك كله بقدر ما تحصل من درجة الرحمة سواء كانت واحد في المائة أو اثنان في

---

(٣٥) أخرجه البخاري (١/٢٧ ، رقم ٥٠) ، ومسلم (١/٣٩ ، رقم ٩)، ولفظ البخاري في حديث جبريل الطويل عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان (قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»).

المائة أو أكثر، ما هي الرحمة التي حصلتها أنت ليكون شكرك خاصًّا بك لله تعالى عليها؟ حينئذ علمت موقفك من الرحمة وتقصيرك في حق نفسك من تحصيلها وتقصيرك في حق نفسك من دعائه بأنه الرحمن الرحيم، علمت مرتبتك ومنزلتك فبدأت تحسن من حالك وتبدأ في فهم التدبر الذي يحملك على العمل والمسارعة إلى الله جل وعلا.

إذا علمت ما سبق وأنت تقرأ، حينئذ علمت درجتك عندما تقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾، ففي حال قولك ذلك في الصلاة، يرد عليك الرب سبحانه وتعالى: بقوله: (حمدني عبدي) [٣٦] فعرفت درجتك من رده هو عليك جل

(٣٦) أخرجه مسلم (١/٢٩٦ ، رقم ٣٩٥)، ولفظه (عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ، قال : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : حَمِدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) قَالَ : مَجَّدَنِي عَبْدِي أَوْ أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) قَالَ : فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قَالَ : هَذِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، وَإِذَا قَالَ : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ

وعلا، بمعنى أن قوله: حمدني عبدي الحمد المطلوب أم ربع المطلوب أم نصف المطلوب، كلٌّ على حسب درجته كما قال: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأنعام: ١٣٢] ؟ والمرء لا يأخذ من صلاته إلا ما عقل منها يأخذ ربعها، نصفها، سدسها، عشرها، وقد لا يأخذ منها شيئًا، وترد عليه، وأنت مفتوح أمامك باب الدرجات، لذلك قال: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. فعندما يقول تعالى : (حمدني عبدني) يكون حمدك على قدر درجتك من الحمد والشكر، أو على قدر درجتك من الاعتراض على القضاء والتشكي وشكوى الله تعالى !

فإن قال العبد: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ﴾ قال الرب جل وعلا: (أثنى علي عبدي) فوقفت هذه الوقفة لترى رد الله عليك كان على أي درجة؟ ما الدرجة التي أعطاك إياها لتعلم منزلتك فيها ؟

الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) ، قَالَ : هَذِهِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»).

قد نظرت إلى هذه الآية المبصرة وإلى هذا المعنى من معاني التدبر فحاولت أن تتطلع إليها وأن تأخذ بحظك منها، وأن تستشفي بها من أمراضك وعللك، ومن تقصيرك في إحسانك ورحمتك لنفسك وفي رحمة الخلق، من تقصيرك في دعاء الله تعالى بأنه الرحيم، وفي دعوته بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وفي توحيده بذلك سبحانه وتعالى وإفراده بذلك تعبدًا وذكرًا.

بدأ أمامك الطريق الذي تستضيء به، ويستنير به قلبك وتعرف به درجتك وتسارع إلى تصحيح ذلك والتوبة من عكسه.

تدبر قوله تعالى: مالك يوم الدين

قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] أو ملك يوم الدين. والمالك هو الذي يملك الأشياء والمنافع، والملك هو الذي يملك الحكم والتصريف والتدبير في شئون خلقه، فكأنه مُلكا ومِلْكا، وهو سبحانه وتعالى يملك ويحكم، ويوم الدين: أي يوم الجزاء، والآية استكمال الكلام في الثناء على الله جل وعلا الرب المعبود الرحيم الرحمن، مالك يوم الدين. فسياق هذه

الآيات هو مناجاة الرب سبحانه وتعالى تسبيحًا له وتحميدًا بكل أصول المحامد التي هي السبب في صلاح الدنيا والآخرة.

يقول العلماء في هذا المعنى: أنه أُشير بمعنى (الملك) لمعنى العدل والإنصاف وإعطاء الجزاء لكل أحد على وفق الحق والحقيقة التي لا تهاون فيها ولا تقصير ولا تجاوز، لذلك فهي تحمل معنى العدل والاستقامة وإعطاء كل ذي حق حقه .

لذلك لم يقل في هذه الآية: رب يوم الدين، وإنما قال: (ملك) ، **لأنه بعدما بين سبحانه وتعالى رحمته بعباده بما أنزل إليهم من رحمة في دنياهم وأخراهم، فإن ذلك قد يحمل الناس حينئذ على التجاوز في أمور الشرع، اعتماداً على رحمة الله جل وعلا ، واتكالًا على عفوه،** والشرع قد جاء بالأمر والنهي والامتثال والاجتناب، ليصلح الله به أمر الدنيا والآخرة، وكل ذلك من رحمته أيضًا، ولكن هذه الأوامر والنواهي قد تأتي مخالفة لأهواء النفس وشهواتها ولعلها تسبب لهم المشقة فينحرفوا عنها اعتمادًا على رحمة الله، وعلى سعة فضلة، فيقصروا في أوامره ونواهيه، فإذا به

سبحانه يثني على نفسه بقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ يوم الجزاء الذي يجازي فيه كل أحد بما قدم وأخر.

فهذا السياق الجميل لتتابع الآيات ليس معناه مواصلة وصف الله تعالى بالأسماء التي يثنى بها عليه فقط، وإنما جاء معنى التذكير بالجزاء ليردهم بهذا المعنى إلى جادة الصواب والحق، والتزام الأوامر واجتناب النواهي، فيقول لهم: سبحوا ونزهوا واحمدوا مالك يوم الدين، مالك يوم الجزاء، الذي يحاسب فيه كل أحد، إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًّا فشر، بالقسطاس والعدل، حتى يستقيموا حينئذ على هذا المعنى، بين الخوف والرجاء، لا أن يميلوا إلى مخالفة أوامر الشرع اعتمادا على الرحمة، وميلا لهذه النفس مع شهواتها ورغباتها؛ لأنها هذه النفس تميل بطبعها إلى مصادمة ما يخالف شهواتها، والأوامر والنواهي تحكمها وتأخذ بقيادها إلى الله تعالى فتأنف حينئذ، لا يستقيم لها ذلك إلا أن تعرف أن هناك جزاء على العمل الصالح وجزاء على المخالفة، حينئذ تستقيم النفس في سيرها إلى الله تعالى.

فجاء الأمر بالحمد والثناء على الله جل وعلا بأنه مالك يوم الدين حتى لا يركن المرء مع نفسه وشهواته وبطالته وكسله، فكان من رحمته أن جاء هذا الأصل العظيم، الإيمان باليوم الآخر، يوم الدينونة، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ليعلم المرء حينئذ أن مثقال الذرة من الخير يحاسب عليه ويجده ويراه، ومثقال الذرة من الشر يراه كذلك، ساعتها فإنك تقف هذه الوقفة مع هذه الآية لتقول: نعم نسرع إلى الخير، نعم ننتهي عن الشر نعم نسارع إلى رضاه، نعم نجتنب معاصيه وسخطه سبحانه وتعالى وأليم عقابه.

نعم قد علمنا بعد الرجاء أن نقف على الخوف حتى يكون هذا الخوف مانعًا من ارتكاب المحرمات والمكروهات، مانعًا من ترك الواجبات والمستحبات حتى يكون هذا الخوف هو العاصم لك من أن تقع في هذا الكسل والتواني وترك الامتثال لله تعالى، وترك اجتناب معاصيه ومخالفته سبحانه وتعالى، قد وقر في قلبك هذا اليوم العظيم: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾

[المطففين: ٦]، ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

أوقفك هذا المعنى الذي رأيت فيه الخوف من الله تعالى والرجاء فيه فأدب الجوارح وقمع الشهوات ونظف القلب من المصائب والمفسدات، لعلمك أنه لا يخفى عليه خافية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة: ١٨].

تدبر قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين

بعد هذه المناجاة لله تعالى والثناء عليه، يلاحظ المتابع للكلام القرآني أن الخطاب فيه جاء بصيغة الغائب، يقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢- ٤] وفجأة إذا به يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ...﴾ [الفاتحة: ٥] فانتقل من الغيبة إلى الحضور أمام الرب، فوجدت نفسك أمام الله تعالى تقول له: إياك، وهذا التحول في الخطاب يسمى في اللغة الالتفات. ومعناه كما يقول أهل اللغة أنك حضرت بين يديه حينئذ. فبعد أن أثنيت عليه ومدحته جل

وعلا بتلك الأمور التي لا يمدح بها إلا هو سبحانه، وعرفت حدوده وعرفت نعمه وآلائه، وسبحته ونزهته، ووصفته بكل ما يليق بأوصاف الكمال، ورفعته عن كل ما لا يليق بصفاته جل وعلا، إذا به قد اقترب من ربه وحضر أمامه سبحانه وتعالى فخاطبه قائلًا: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ...﴾ [الفاتحة : ٥] **فكأنه قد اقترب من ربه، وبدأ في مخاطبته** وكأنه يقول بعد هذا الثناء: لم يكن لنا إلا الإخلاص في العبادة، وتوحيد الرب الذي هذه صفاته، ولم يكن لنا قدرة على القيام بهذا التوحيد وذلك الإخلاص إلا بالاستعانة به سبحانه وتعالى، لذلك قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ...﴾ [الفاتحة : ٥]

.

وقدم حق الله تعالى على مطلوب العبد، وهو تقديم للهدف وهي العبادة، على الوسيلة التي هي الاستعانة فقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة : ٥] ولم يفصل بينهما بل عطف، كان يمكن أن يقول: إياك نعبد إياك نستعين؛ حتى يبين هذا المعنى أنهم يعبدونه مستعينين به في نفس الوقت، ولا

يتمكنون من العبادة إلا بالاستعانة فيها، لا يستطيعون ذلك إلا بعونه ومدده وقوته سبحانه وتعالى.

لذلك يقول العلماء في تفسيرها: إياك نعبد هذه خلاصة الدنيا والآخرة، وذلك لأن الله تعالى أنزل التوراة والإنجيل والزبور، ثم جمع كل ذلك في القرآن، ثم جمع القرآن في الفاتحة، ثم جمع الفاتحة في هذه الآية: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ۝ ﴾ [الفاتحة : ٥].

ومختصر معنى قوله تعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ۝ ﴾**: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين** وكان يمكن أن يقول إياك نعبد ونستعين ولكن قال سبحانه وتعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ۝ ﴾ فكرر إياك، للاهتمام بذكر الرب سبحانه وتعالى وبقوة ما يقتضيه هذا الذكر، إياك نعبد، إياك نستعين، إياك نخاف، كأنه يعطي هذا المعنى تلك القوة بتكرر اسم الرب سبحانه وتعالى فيها، فتكون بذلك العبادة أقوى،

والاستعانة أقوى كلما خصصت ربك سبحانه وتعالى بها، لا نعبد إلا هو، ولا نستعين إلا هو، ولا نخاف إلا إياه.

ونقف قليلًا على معنى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ معنى العبادة: كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال في الظاهر والباطن ، كأنك تقول لربك سبحانه وتعالى: كل ما تحبه في الظاهر والباطن من القول والفعل أنا أقوله لك يا ربي، تنبه لهذا الكلام حتى تنظر في حالك وتتدبر هذا المعنى، إياك أعبد يعني: أقول وأفعل في ظاهري وباطني مع نفسي ومع غيري من الناس ومع كل أحد ما تحبه وترضاه.

وللعبادة شرطين لابد منهما: **الأول: أن يكون المرء مخلصًا لله،** فلما يقول له: إياك أعبد. أي أعبد إياك أنت لا أعبد سواك، وأخلص لك في هذه العبادة وأعبدك بما ترضى، **والثاني : أن أعبدك بما أرسلت به نبيك صلى الله عليه وسلم،** فهذا معنى أنك لا تعبد إلا هو، وكذلك لا تعبده إلا بما يحب ويرضى، ولا تعبده إلا باتباعك للنبي – صلى الله عليه وسلم – في كل صغيرة وكبيرة.

فلا تعبد سواه مخلصًا له في هذه العبادة، لا تعبده لحب المدح والثناء، ولا لدفع ذم الناس لك، فتحب فيه وتبغض فيه وتعطي فيه وتمنع فيه وتصلي له وتصوم له وتتعبد له، كل ذلك له وحده له لا لشيء آخر لا لأحد، كأنك تقول: أنا لك وبك ومعك لا بأحد ولا لأحد أعمل، ولا أصلي ولا أقوم ولا أتصرف وإنما ذلك لك كله، وذلك لك كله على التزكية التي جاء بها النبي – صلى الله عليه وسلم – واتباعه – صلى الله عليه وسلم – لا على هوى النفس وكسلها.

وتقول ذلك وأنت تتأكد من هذا المعنى، أنك لا تفعل ذلك في ظاهرك وباطنك إلا مستعينًا به سبحانه وتعالى، وتقول: **أنا أعبد وحدك بهذا، وأستعينك على هذه العبادة لا أستطيعها وحدي، ولا أتمكن منها بنفسي**، فإن نفسي تميل إلى الكسل وإلى العجز والنوم وتميل إلى البطالة وإلى الشهوات وإلى الصور وإلى المال وطول الأمل وتميل إلى الجاه والمنصب والسلطان، وتميل إلى الدنيا

ومحبتها فلا أتمكن من ذلك إلا بك لذلك لا أستعين على هذه العبادة إلا بك سبحانه وتعالى.

ومعاني التدبر بعدما قلت له: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ فهل المرء صادق فيها ؟ فنظرت إلى العبادة وأثرها على قلبك وعلى عملك، هل رأيت نفسك أيها المتعبد الذي تقول لربك: إياك أعبد، أن كل ما تحبه وترضاه أعمله وأعمله على الإخلاص واتباع النبي ؟ كل ما تحبه وترضاه أعمله ظاهرًا وباطنًا لا أفرط في ذلك لا في وقت ولا في شيء ولا في عمل؟ فنظرت فإذا بك قد عرفت أثر هذا المعنى على قلبك، ومدى صدق هذا الكلام على واقع حالك وأعمالك ونظرت فرأيت فيه مرتبتك عند الله تعالى.

إن أصناف المتعبدين عند الله تعالى أولهم المقربون ثم أصحاب اليمين ثم بعد ذلك هؤلاء المقصرون الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، وأولئك المقربون في العبادة هم الصنف العالي، وهم المؤتمرون بالأوامر والمنتهون عن النواهي،

والمسارعون إلى المستحبات والتاركون للمكروهات، والمباحات عندهم أعمال وطاعات بالنيات الحسنة مسارعين إلى ربهم في ذلك.

وأصحاب اليمين، وهم بعد المقربين، رأيتهم كذلك مسارعون إلى الخير باذلون له في أحوالهم وأقوالهم في الظاهر والباطن، ممتثلين للأوامر، مجتنبين للنواهي يفعلون كثيرًا من المستحبات ويتركون كثيرًا من المكروهات، ويقعون في مكروهات وترك المستحبات لا أكثر وإن حدث منهم حادث سارعوا بالتوبة والاستغفار وإلى الله تعالى، وتلك المرتبة الثانية.

والمرتبة الثالثة هؤلاء الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فلسان حالهم يقول: نعبدك: نعم نعصيك: نعم، نعمل: نعم نقصر ونفرط: نعم، نسارع إلى الله: نعم، نتكاسل عن الله: نعم، نعمل المستحبات: نعم، نقع في المكروهات: نعم ! نزل عندهم إذًا معنى التعبد عندما قالوا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وعرفت إذًا مرتبتك ودرجتك من العبادة، وهل أنت صادق فيما تقول أو لا، فتنظر إلى ذلك.

وفي نفس الوقت علمت قيمة استعانتك بالله تعالى؛ لأنك ما تصل في هذه المرتبة العالية في التعبد وإلى درجة فوق درجة في التعبد إلا بالاستعانة بالله تعالى، **فعلمت أن استعانتك بالله تعالى على قدر تعبدك لله تعالى**، والاستعانة هي الثقة والاعتماد أي الثقة في الله والاعتماد عليه، فإنك قد تثق في الشخص ولكن لا تعتمد عليه أو تعتمد عليه بغير ثقة أنه سيفعل ما تمليه عليه، وإنما لا تثق ولا تعتمد إلا على الله، فلو كان استعانتك زائدة بالله لوجدت استعانتك على قدر ما أنت فيه من تعبد، أنزلت التعبد وقيمته على قلبك فعرفت مرتبتك، ونظرت فقلت: أي ربي ! أنا لست صادقًا في قولي: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ أنا مقصر ومفرط ومتكاسل! قد بَيَّنت لك الآية، وبَصرتك إذن طريقك، وأظهرت منزلتك ومرتبتك، وهي في نفس الوقت تقول لك: أيها العبد أنت تقول إياك نعبد وإياك نستعين. هذا دواؤك ويمكن أن تصل إلى هذه المرتبة وقد فتح لك باب التعبد وفتح لك باب الاستعانة به، وإن التعبد له سبحانه وتعالى تسبقه إعانة من

تستطيع أن تعبد بها، واستعانة بعدها تثبت بها على العبادة، ويفتح لك بها عبادة أخرى، وذلك معنى الاستعانة.

أنت مقصر إلى أي درجة إذن؟ هذا هو وقع التدبر على قلبك، وقفت حزينًا تقول: نعم قد تدبرنا ذلك ووجدنا هذه المرتبة التي نحن فيها، والله فتح الباب للتعبد والاستعانة، قد جددنا العزم وقد استعنا بالله تعالى وتقوينا بالله تعالى واعتمدنا على الله تعالى وتوكلنا على الله تعالى ووثقنا في الله تعالى وسوف نعاود الكرة، ونبدأ المجاهدة، وسوف يفتح الباب ونرى فعلاً: ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ٦٩ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، لما عرفت مرتبتك وظهر حزنك وتبين أنك تقول غير ما تفعل، وأن كلامك تواجه به ربك وتخاطبه لست فيه على هذه الدرجة التي تتكلم بها فقررت وعزمت حينئذ أن يقع دواء هذه الآية على قلبك لشفائك فعزت عزمًا أكيدًا على أن تستعين بالله تعالى أن يتغير هذا الحال، وأن تواصل المرتبة إلى ما هو المطلوب.

لذلك قال لك النبي –صلى الله عليه وسلم–: **(استعن بالله ولا تعجز)** [٣٧] بمعنى أن على قدر عجزك على قدر قلة استعانتك بالله تعالى، وإنك مهما استعنت بالله تعالى – كما يقول ابن القيم وغيره – لو أمرت بإزالة جبل أزلته استعانة بالله وقوته لا بنفسك الضعيفة ولا بقدرتك المحدودة وبعقلك وفهمك السقيم بل بقدرة الله وقوته بالعون به استعانة، وبالتوكل عليه والثقة في أنه قادر على ذلك جميعًا.

وإن تدبرًا آخر في الآية يقول: إن المتعبدين أصناف كثيرة، يقول ابن القيم: الصنف الأول: يجعل التعبد هو شدة المجاهدة والتثقيل على النفس، وحملها لتستقيم، وحملها على مشقات العمل.

---

(٣٧) أخرجه مسلم (٢٠٥٢/٤ ، رقم ٢٦٦٤) ، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَرٌّ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا قُلْ قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ اللهُ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ ").

والصنف الآخر يرى أن التعبد في الأمر المتعدي النفع في الدعوة ونفع الفقراء وإعطاء المساكين، والقيام على مصالح الناس.

وصنف ثالث يرى التعبد في أن يتعبد لله تعالى وفي أن يصلي كذا وكذا على علم أو على جهل، ويرى أن يجتمع بقلبه على الله لا يجتمع على شيء آخر.

والصنف الذي يتكلم عليه ابن القيم – صنف أصحاب التعبد المطلق –يقول : أما التعبد الحق وأهل التعبد الحق – ونذكر هذه الجزئية لنرى هذا المقياس الذي نقيس به أنفسنا ونحاول فيه، ونستعين الله تعالى على القيام به – يقول: هؤلاء حيث وُجِدت أوامر الله ومستحباته وجدتهم تحتها.

فإن وُجدت صلاة، فهم المسارعون إليها المقيمون لها الخاشعون فيها المتدبرون لها، أو الجهاد وجدتهم في الصفوف الأولى، أو الزكاة وجدتهم كذلك أو الصوم وجدتهم كذلك حتى لو كان الأمر إكرام ضيف وجدتهم في إكرام الضيف والقيام به، وفي الليل

وجدتهم في استغفار وقيام ودعاء بالأسحار أو في نهار وجدتهم صوامًا أو في علم وجدتهم عالمين أو متعلمين، أو في ذكر وجدتهم يذكرون الله على كل أحوالهم، أو في مصلحة الدين والدعوة وجدتهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر قائمين بأوامر الله تعالى رافعين راية الله تعالى أو في أخوة وصحبة وجدتهم متآلفين متحابين أو القيام بأحوال أهلهم وبيوتهم وجدتهم قائمين عليها محافظين عليها، هذا حالهم وهذا تعبدهم(٣٨).

---

(٣٨) يقول ابن القيم في مدارج السالكين: (الصنف الرابع ، قالوا : إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته ، فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار ، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن . والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب ، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل . والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار . والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه والاشتغال به. والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن . والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه ، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع ، وإن بعد كان أفضل . والأفضل في أوقات ضرورة

المحتاج إلى المساعدة بالجاه ، أو البدن ، أو المال الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك . والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك . والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد ، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد ، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين . والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء . والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته ، وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك . والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير ، فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه ، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم . فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد ، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد ، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في

تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى ، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره ، فإن رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم ، فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه ، فهذا هو المتحقق ب﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ حقا ، القائم بهما صدقا ، ملبسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليا ، لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم ، حر مجرد ، دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها ، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ، والغضب إذا انتهكت محارم الله ، فهو لله وبالله ومع الله ، قد صحب الله بلا خلق ، وصحب الناس بلا نفس ، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين ، وتخلى عنهم ، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها ، فواها له ! ما أغربه بين الناس ! وما أشد وحشته منهم ! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه ! ! والله المستعان ، وعليه التكلان.) مدارج السالكين- طبعة دار الكتاب العربي- الجزء الأول ص ١١٠، ١١١.

وانظر إليك لترى عاقبة ذلك متدبرًا لهذه المعاني تقيس نفسك بمقياس هذه الآية تعبدًا واستعانة لترى موقفك ولتسارع إلى ذلك الباب المفتوح الذي فتحه لك وأمرك أن تقول فيه إياك نعبد إياك نستعين، تقولها على الصدق وعلى الحقيقة، وعلى القيام بحدودها.

والمعنى المهم التالي وهو أننا نقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ في كل ركعة من ركعات صلاتنا إلى أن ينتقل المرء إلى الله تعالى، فتقال إلى أن يخرج المرء من الدنيا، كأنه يقول كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝ ﴾ [الحجر: ٩٩].

إذن أنت في كل ركعة من ركعاتك وفي كل وقت من أوقاتك تقول: إياك أعبد إياك أستعين، في كل لحظات وقتك تقول له ذلك، إذن أنت على كل أحوالك متعبد لله تعالى في كل حال وتحت كل راية من تلك الرايات التي يقف فيها المتعبدون الحق على حسب أوقاتهم، على حسب أحوالهم، على حسب

أعمالهم، فأنت مترق في تعبدك إلى الله ليس راجعًا، إنما أنت مستقيم في سيرك إليه، كلما ستدعو وتزداد من هذه العبادة، فإنك تقترب منه سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق: ١٩].

فالمرء لا يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ في صلاة الصبح مثلًا وقد استجمع قلبه وتحقق بمرتبة من مراتب العبادة ليلاً أو نهارًا ثم يأتي في الظهر ليقول له: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وهو مقصر، فعندما تقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يعني: قد ازددنا تعبدًا، ليس إياك نعبد، ونحن نزداد تقصيرًا، ونقول إياك نعبد! لا وإنما: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩] ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق: ١٩] ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٣] .

ومن ثم فالمرء واقف على هذا المعنى من التعبد ليعرف به درجته ويعرف به ارتفاعه وترقيه إلى الله، أو يعرف به نكسته ورجوعه، وهو على أي حال لا يزال واقفًا على باب الله تعالى

يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ ، فإن كنت مفرطًا قلتها له على معنى أنك ستخرج عن هذا التفريط وتعود إلى مقتضى العبادة وتستعين الله تعالى على أن يعينك على العبادة، فإذا ما أعانك عليها طلبت إعانة أخرى بعدها، وهي أن يثبتك عليها وأن يفتح لك بابًا آخر من أبواب التعبد تسير به إلى الله تعالى.

حينئذ علم المرء شيئًا مهماً وهو أنه مقصر في عبادته، **فلا ينبغي للمرء الفقير إلى ربه يتكبر ولا يقل: أنا أصلي وأنا أعمل وأنا أتعبد، بل قف وقل:** ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وانظر إلى درجتك لتعرف كيف تكون منكسرًا متواضعًا لله تعالى، تعرف احتياجك وفقرك وتعرف مسكنتك ولا تفتح فمك إلا بالتذلل إلى الله تعالى والخضوع التام إليه، وهو مقتضى العبودية.

إن مقتضى العبودية – كما ذكرنا – هو الذل التام لله تعالى والمحبة التامة له، ولا يسير المرء المتعبد إلا بذلك: مشاهدة منن الله تعالى عليه، ومطالعة عيب نفسه وعمله، لذلك يقول في

دعائه: (أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي) (٣٩) مع علمه أن كل ما هو فيه من خير: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] و ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النحل: ٥٣]، فإن كنت في خير ، فهو المنعم عليك بذلك، وإن كنت في شر فأنت المسيء، وليس لك في الأمرين شيء إنما أنت مفلس مضطر فقير إلى الله تعالى.

حينئذ إن رأى منك الفقر والذل والخضوع والمحبة، ورأى سيرك إليه مهما كنت في حال من تقصير وتفريط ومعصية إذا رآك على هذه الحال رحمك، وفتح لك بابه وحملك وأعانك.

---

(٣٩) أخرجه البخاري (٢٣٢٣/٥ ، رقم ٥٩٤٧)، ولفظه (ن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (سَيدُ الاستغفَار أنْ يَقول : اللهُمَ أَنت ربِي لا إله إلا أَنت خَلقتَني وأَنا عَبدُك وأَنا عَلى عَهدِك ووعدِك مَا استَطعتُ ، وأَعوذُ بِك مِن شَر مَا صَنعتُ أَبوء لَك بِنعمَتِك ، وأَبوء لَك بِذنبِي فَاغفِر لِي فَإنهُ لا يَغفرُ الذُّنوب إِلا أَنت) قال: مَن قَالها مِن النَّهارِ مُوقناً بِها فَماتَ مِن يومهِ قَبل أنْ يُمسِي فَهو مِن أَهل الجَنةِ ، ومَن قَالها مِن الليل وهُو مُوقِنٌ بِها فَماتَ قَبل أنْ يُصبحُ فَهو مِن أَهل الجنةِ).

أخذت من الآية الكريمة دواء لداء نفسك ووصفة من وصفات الشفاء لها وهي **كيف تتعبد ربك، مستعينًا به قبل التعبد ومستعينًا به بعد التعبد**، سائرًا إليه متقربا له، رأيت مرتبتك وعرفت درجتك وعلمت كيف تسير إليه في طريق الاستقامة والتعبد حينئذ وقفت تقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة :٦] لما علمت تقصيرك وعلمت تفريطك وعيب نفسك وقلة عملك وفي نفس الوقت علمت منن الله عليك المترادفة المتتالية؛ لأنه أخذك إليه وأوقفك بين يديه وأعانك على ما أنت فيه، ولكنك متطلع إلى أن تقول له: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ بحق وصدق وإخلاص واتباع لسنة النبي –صلى الله عليه وسلم- تريد أن تثبت على الصراط وأن ترتفع درجتك بقدر ثبوتك على الصراط في الدنيا وسيرك عليه على قدر ثبوتك وسيرك على صراط الآخرة، وعلمت موقفك وأمراض نفسك وعللها حينئذ، وحاولت الاستعانة بالله والتضرع إليه ودعاءه ومجاهدة النفس على أن تقوم بذلك له سبحانه وتعالى، تسجد، وتقترب،

تكثر من الصلاة، والذكر، والقرآن، وتقف تحت راية الإسلام التي ذكرنا؛ الصيام والقيام والجهاد والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعلم النافع والعمل الصالح والقيام بالمصالح، وكل ذلك وقفت فيه وله وبه -سبحانه وتعالى-، لا يخطئك موقف تستطيعه إلا وسرت إليه، لا تقصر فيه، إذا صرت ذلك اسمع إلى قوله تعالى وتدبره وافهمه: ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة: ٦] .

تدبر قوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم

وأول ما يتنبه إليه المرء المتابع للآيات هنا أن قوله: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ لو كانت على الكمال ما أتى بعدها : ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة: ٦] ، بمعنى: أن المرء عندما يقول: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ صادقًا مخلصًا متبعًا يتعبد يومه وليله ولا يأتي عبادة أقل عن ذي قبل ويزداد في ذلك فلن يوفي العبادة ولا الاستعانة حقها، وإنما

هو مقصر ، لذلك يأتي بعدها ليقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٦].

إن أول معنى يمكن أن يراه المرء واضحًا أمامه أنه يقول: اهدنا الصراط المستقيم إلى يوم يموت أليس كذلك؟ ويقولها في كل ركعة وفي كل آن وحين وكأنه المعنى: مهما بلغ من التعبد والاستعانة ومهما ارتفع في الدرجة فهو لم يستكمل الهداية بعد، ولن يستكملها إلى يوم يموت، وهو يدعو بها إلى أن ينتقل إلى الله تعالى، أليس كذلك؟

وهذا المعنى يخرج العجب من نفس المرء، فلا يُعجب بعبادته من ناحية، ومن ناحية أخرى تضع في قلبه الخوف من الزيغ عن طريق الاستقامة. فلماذا يقولها المرء في كل ركعة إلى أن يموت: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ ؟ خوفًا أن الزيغ عن هذه الاستقامة وطلبًا من مزيد الاستقامة، وطلبًا للثبات على الاستقامة، وطلبًا لاستقامات أنت غير مستقيم عليها، وطلبًا لاستقامات أنت مقصر فيها، وطلبًا لاستقامات لا تعرفها، وطلبًا

لاستقامة تطلب بها العلم والعمل؛ لأن لا شك لن تحصل كل العلم الذي يأتي بكل الاستقامة، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] ولن تحصل كل العبادة المنبنية على العلم الذي تعرف وبالتالي لن تحصل كل الاستقامة على العلم الذي لا تعرف، فأنت مفتقر إلى الاستقامة فيما تعرف وفيما لا تعرف، وفيما سرت لتثبت وفيما عملت لتزداد، وأنت محتاج إلى الاستقامة لئلا تروغ عنها أو أن تضل وأن تفرط وأن تقصر، وكل ذلك إلى المهات، فيخرج من قلب المرء حينئذ رؤية أنه ممكن أن يستقيم بنفسه ويخرج من قلبه حينئذ أنه مهما كان فهو لا يزال يطلب الاستقامة، فهو مفتقر إلى الله تعالى، لا ينبغي له أن يمُن باستقامته، فهي من الممكن أن تضيع منه، لا تمن بأحوالك ففيها ما هو أحسن، ولا تمن بأحوالك فيمكن أن تنزل عنها، لا تمن بما أنت فيه من استقامة هذا المعنى الأول، فصرت مفتقرًا إلى الله تقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦] إلى يوم الدين.

علمت أنك مفتقر لا ترى لنفسك حالاً ولا مقامًا ولا عملاً ولا عبادة ولا ظاهرًا ولا باطنًا وإنما ترى نفسك وأنت واقف تقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة :٦] ، فطلب الهداية إنما هو مطلوب المؤمن إلى أن يلقى الله تعالى، أي عندما يقول المرء : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ إنما يطلب ذلك من الله كل وقت إلى أن يلقى الله، أي إلى أن يموت المرء وهو يصلي ويقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٦].

والأمر المهم التالي الذي يتعلمه المرء: أن المرء لا يدعي أبدًا لنفسه أنه مهتد أبدًا، وإنما هو في كل حال يطلب الهداية، ليترقى إلى الله تعالى وليعصمه الله تعالى من الزلل عن طريق الهداية، وليعصمه الله تعالى عن الروغان أو التكاسل عن هذا الطريق إلى آخر ما ذكرنا.

فالمرء محتاج إلى هداية الله في كل حال ويطلبها في كل وقت ، والأمر الثاني الذي بينته الآية هو الانكسار والتواضع لله تعالى،

فلا يظن أحد أبدًا أنه مهما بلغ قد بلغ شيئًا من الهداية بل هو يطلبها ولا يزال إلى أن يموت، وهذا يعطيه معنى التعبد الذي ذكرناه؛ لأن التعبد: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ يكون إلى الموت، وكذلك يقول تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝ ﴾ [الحجر: ٩٩] وبالتالي هو يتعبد ويطلب الهداية إلى أن يلقى الله تعالى فهو منكسر بالتعبد لله تعالى، منكسر بطلب الهداية إليه متواضع بها، لا يرفع نفسه على أحد أبدًا؛ **لأنه لا يعلم الخاتمة فهو يطلب الهداية إلى أن يموت**، قد لا يموت عليها، ولا يعلم الخاتمة، بم يختم له فيها؟

لذلك يقول: نحن مقصرون في الاستقامة اهدنا، نحن نخاف أن تذهب ثبتنا، نحن مستقلون فيها زدنا يا رب اربط على قلوبنا، وكان قوله -صلى الله عليه وسلم-: (**يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على**

طاعتك) [40] ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾** ﴾ وهو قد وصل فيها إلى الدرجة العليا ثم إذا به يقول: ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾** ﴾ [الفاتحة:٦] وهو صلى الله عليه وسلم له حالته الخاصة وهي الزيادة من هذه الاستقامة والثبات عليها.

النظر التالي وأنت تقول: ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾** ﴾ بعد أن علمت **أن الهداية نوعان: هداية الدلالة وهداية وضع الإيمان في القلب**، وهداية الدلالة هداية عامة، يقول الله تعالى للنبي –صلى الله عليه وسلم-: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ**

---

(٤٠) أخرجه أحمد (٦/٣٠١ ، رقم ٢٦٦١٨)، والترمذي (٥/٥٣٨ ، رقم ٣٥٢٢) وقال : حسن . ولفظه (عن شَهْر بْن حَوْشَبٍ قَالَ قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ قَالَتْ كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَكْثَرَ دُعَاءَكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ قَالَ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ فَتَلَا مُعَاذٌ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا).

ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] هذه هداية الدلالة والتبيان والتبيين، وفي الآية الأخرى قال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] يعني لا تضع الإيمان والتوفيق في قلب أحد بل ذلك لله تعالى، وأنت أيها الإنسان محتاج إلى هذه الاستقامة أليس كذلك؟ لذلك تدعو الله تعالى بالهداية، والله تعالى يقول: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣] فعندما تقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ تعلم أن الذي يهديه ربه: ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣] ، لأن مرتبة الاجتباء هذه عالية، والمرء المسكين لا يظن ذلك بنفسه، أما مرتبة الهداية، فتتحقق بالإنابة.

إذن أنت تحتاج إلى الإنابة حتى تتحقق بطلب الهداية من الله تعالى، والإنابة – وهي فوق التوبة– الرجوع إلى الحق تعالى، فكما رجعت اعتذارًا في التوبة إلى الله وعهدًا على ألا تعود إلى الذنب وندمًا على ما فعلت فإن الإنابة فوقها.

فإذا رجعت إليه أي رجعت إلى الحق اعتذارًا في التوبة رجعت إليه إصلاحًا في الإنابة، وإذا رجعت إليه عهدًا في التوبة ألا تعود إلى ذنب أبدًا رجعت إليه وفاء في الإنابة، وإذا رجعت إليه إجابة في التوبة، رجعت إليه حالاً تصدق به الأفعال من التوبة الصادقة فرجعت إليه حالاً ووفاء وإصلاحًا، وحينئذ أنت منيب فتقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ متحققًا بها.

ويمكن حينئذ أن يكون لقولك بفضل الله وبرحمته، باب مفتوح عنده يستجيب لك به فيهديك هذا الصراط وهو: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة: ٧].

وقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة: ٦] أيضًا نلاحظ فيه أن الله تبارك وتعالى أخر طلب الهداية بعد أمرين؛ **الأمر الأول:** هو الثناء على الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢-٤] ثم فجأة انتقل المصلي أو القارئ من الخطاب

إلى المواجهة فإذا به يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ وهو **الأمر الثاني**: وهو العمل الصالح والتعبد والاستعانة، فتهيأ حينئذ لأن يدعو الله تعالى بعد أن أثنى على الله وقدم العمل والعبادة فإذا به يطلب بعد ذلك مطلوباته، لأنك إذا أردت أن تدعو الله تعالى فإنك بين يدي دعائك إنما تثني على ربك وتتوسل إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وتتوسل إليه بالعبادة وبالعمل الصالح حتى يرتفع بعد ذلك هذا الدعاء إلى الله تعالى، ويكون هذا الدعاء في محل القبول من الله جل وعلا.

وكان الملاحظ أنه بعد قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ كان يمكن أن يقول: نجنا من يوم الدين ومن الحشر والميزان والحساب أو أدخلنا الجنة أو غير ذلك من عواقب هذا الدعاء، ولكن جاء الدعاء بالهداية ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾ ليبين أن أهم مقصود من مقصود القرآن والدين هو هذه الهداية التي يستقر قلبك عليها ويستقر قلبك بالدعاء بها إلى أن تلقى الله تعالى، هو المقصود الأعظم من إنزال الكتب وإرسال الرسل،

لذلك لو وصلنا سورة الفاتحة بالبقرة كما يقول المتدبرون في معاني القرآن والذين يربطون بين الآيات والسور : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: ١-٢].

بمعنى أن أول آية قد نزلت أن هذا القرآن إنما هو للهداية، فكان أهم مقصود المرء إذن هو طلب الهداية من الله تعالى، فأول دعاء دعوته وتدعوه وستظل تدعوه إلى أن تقوم قيامتك هو طلب الهداية.

وانظر إلى معنى التدبر، وهو: كيف تنزل هذه الآية الكريمة على قلبك وكيف يكون موقعك من الهداية، وكيف يكون أثر هذه الآية على قلبك وعلى عملك، لتأخذ من هذه الآية مرتبتك في الهداية عند الله تعالى ، أين مرتبتك في هذه الآية ؟ أين منزلتك منها ؟ كم درجة أخذت من الهداية؟ لتعلم حظك من الله تعالى في طلب الهداية ولتعلم الطريق إلى أن تحصل هذه الهداية، أي قد عرفت وشخصت داءك ومرضك في نسبة الهداية التي أنت فيها، ثم بدأت تنزل دواء الهداية على قلبك لتزداد منها .

وأهم شيء أن تدعو بالهداية والتثبيت والزيادة منها، لأن الله يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ۝١٧ ﴾[محمد: ١٧] لذلك كان المعنى الأول في ذهنك وخاطرك أنك في كل لحظة تدعو الله متضرعًا وتقول: أي رب، أطلب الهداية والثبات عليها والزيادة منها والاستقامة على طريقك والتثبيت عليه وعدم الخروج منه.

المعنى التالي من الآية هو أنك لم تطلب الهداية منفردًا، لم تقل: اهدني الصراط المستقيم، وإنما قلت : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ ، **فكان الهداية التامة للمرء المؤمن لا تكون إلا بأن يكون هاديًا مهديًا**، لا تكون هذه الهداية متحققة له إلا بأن يكون كذلك داعيًا غيره إلى هداية الله، وإنك مهتم أشد الاهتمام بأن تدعو الله تعالى أن يهديك وإخوانك المسلمين والدنيا كلها إلى الله تعالى، وهذا دعاؤك إلى الله تعالى.

ولا يتحقق هذا الدعاء لما تقول : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ إلا بمعني: أي رب وفقنا لهذا الصراط جميعًا

واجعلنا جميعًا دعاة لهذا الصراط ووفقنا لأن نكون دعاة إلى الهداية لك وإلى طريقك، ولا يتحقق ذلك الدعاء إلا بالعمل، أي بأن تدعو غيرك إلى الله تعالى للهداية به، ولا يرتفع معنى التدبر في قلبك لطلب الهداية بأن تدعو الله فقط، كلا، وإنما بالعمل، وهي كما ذكرنا في قوله: ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢] ليس على الخبر وإنما على أن يكون المرء حامدًا، وكذلك عندما تقول: ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ﴿٦﴾ ﴾ ليس على الدعاء فقط بل أن تكون كذلك مهديًّا هاديًا إلى الله تعالى.

فكانت الدعوة إلى الهداية من أخص خصائص المؤمنين دعاء إلى الله وسلوكًا بين الناس، وألا تقول : ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ﴿٦﴾ ﴾ بغير أن تحقق هذه الدعوة بذلك العمل الصالح بدعوة الناس إلى الله وإلى هدايتهم، ولا تكون قد أخذت درجة في معنى التدبر في منزلتك في الهداية فلا تكتمل منزلة الهداية إلا بأن يجعلنا المولى كما يقول النبي –صلى الله عليه وسلم– **(واجعلنا**

هداة مهتدين) [٤١]، فلن يكون المؤمن محبًّا لربه مقبلاً عليه وهو يرى معصية الله تعالى في بقية الخلق، ويترك هؤلاء الخلق لا يدعوهم إلى الله، كلا، وإنما لا تكتمل هدايته إلا أن يكون آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر داعيًا إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر بالرفق واللين

المعنى التالي من معاني التدبر المساقة في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٦] أن الصراط الموصل إلى الله

---

(٤١) أخرجه أحمد (٤/٢٦٤ ، رقم ١٨٣٥١) ، والنسائي (٣/٥٤ ، رقم ١٣٠٥) ، والحاكم (١/٧٠٥ ، رقم ١٩٢٣) وقال : صحيح الإسناد . وصححه ابن حبان (٥/٣٠٤ ، رقم ١٩٧١) .. ولفظه (عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ قَيْسِ بْنِ عَبَّادٍ، قَالَ: صَلَّى عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِالْقَوْمِ صَلاةً أَخَفَّهَا، فَكَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوهَا، فَقَالَ: أَلَمْ أُتِمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَمَا إِنِّي دَعَوْتُ بِهَا بِدُعَاءٍ كَانَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَدْعُو بِهِ: اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الإِخْلاصِ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لا يَنْفَدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ).

تعالى لا صراط غيره، وقد علمنا أن الله تعالى قد بين سكة من سكك الهداية وهي الإنابة، وقد بينت مواقع أخرى سكك أخرى للهداية أيضًا للصراط المستقيم، فما هي؟

يقول المولى تعالى سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥] والمعنى: أن الهداية إنما تتحقق بثلاثة أمور، لا نقول أمرين بل بثلاثة أمور؛ بالاعتصام بالله تعالى، وبالنبي – صلى الله عليه وسلم– وبالقرآن.

الأول: الاعتصام بالله تعالى: يقول المولى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥] إذا أول هذه المعاني التي تستلزم الهداية هي اعتصام المرء بالله جل وعلا، وأهم طريق إلى أن تكون هاديًا مهديًا هو اعتصامك بالله جل وعلا.

والاعتصام نوعان كما ذكر الرب –جل وعلا– اعتصام بحبل الله واعتصام بالله، والطريقان سكة للهداية، الاعتصام بالله قال فيها–سبحانه وتعالى– الآية: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٥] والآية الثانية : ﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

فأول طرق الاستقامة على الصراط المستقيم بعد الإنابة هو الاعتصام بالله جل وعلا. والاعتصام بالله سبحانه وتعالى كما يقول ابن القيم: إن الإنسان في سيره في الطريق المستقيم إلى الله تعالى يحتاج إلى أمرين الأمر الأول: الدلالة في الطريق، أي من يدله على الطريق فلا ينحرف يمينًا ولا شمالاً فلا يضل في هذا الطريق، وهي الاعتصام بأوامر النبي - صلى الله عليه وسلم ،

والأمر الثاني: السلامة في هذا الطريق، وتتحقق بالقوة والعدد والسلاح والمدد والمئونة والعون وهي الاعتصام بالله تعالى(٤٢).

فحتى تستطيع السير في هذا الطريق المستقيم لابد أن تعتصم به سبحانه وتعالى، وأن تعتصم بحبله. **والاعتصام به هو ألا تنظر إلى سواه وألا تعتمد على سواه وألا تخاف من سواه وألا ترضي سواه وألا تتوكل على سواه وألا تثق في سواه وأن رزقك منه وأجلك منه وهدايتك منه وروحك منه**، وكل ذلك نظرك إليه، ويقينك عليه وتوكلك

---

(٤٢) يقول بن القيم: (ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله ، والاعتصام بحبله ، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين . فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة ، والاعتصام به يعصم من الهلكة ، فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده ، فهو محتاج إلى هداية الطريق ، والسلامة فيها ، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له ، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة ، وأن يهديه إلى الطريق ، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل ، والاعتصام بالله ، يوجب له القوة والعدة والسلاح ، والمادة التي يستلئم بها في طريقه ، ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله ، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.) مدارج السالكين- - طبعة دار الكتاب العربي - منزلة الاعتصام — ص ٤٥٨.

عليه وثقتك فيه ورجاؤك فيه وخوفك منه وسيرك إليه وخشيتك له ومحبتك له وإخلاصك له وصدقك له وبَذْلُك له، كل ذلك اعتصامك بالله.

إذا تحقق شيء من ذلك نظرنا إلى معنى التدبر، وهو: كيف تنزلت هذه المعاني على قلبك لترى موقعك من الهداية التي ذكرنا ولتعرف درجتك، هل كنت بها هاديًا مهديًّا، فإن كنت فما هي الدرجة التي حصلت؟ هل هي عشرة بالمائة عشرون بالمائة خمسون بالمائة ...؟ فتقيس نفسك وحالك بهذه الآية.

والاعتصام الثاني: هو بالنبي –صلى الله عليه وسلم– وطاعته واتباعه، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ [النور: ٥٤] لماذا قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] فهو الهادي والله يقول له سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢] فقد أتم عليه النعمة وأكمل له المنة، فهو العابد الأول على الصراط

المستقيم، هو الهادي الأول على الصراط المستقيم، فإن تطيعوه تهتدوا وإن تتبعوه تهتدوا، وتلك محبته واتباعه في الظاهر والباطن.

وعليه فهدايتك التي تطلب من الله تعالى موقعها الثاني هو اتباعك: ﴿ **وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ، ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ [النور: ٥٤] وليس هناك مهديّ هاد قبله –صلى الله عليه وسلم– في الدنيا والآخرة، وعلى قدر طاعتك له واتباعك له يدل ذلك على المحبة: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٣١] ، ومن ثم كان اتباعه وطاعته –صلى الله عليه وسلم– هو مقياسًا لهذه الهداية التي تدعي ظاهرًا و باطنًا، وبقدر تقصيرك بقدر نقص الهداية في الدنيا والآخرة.

والأمر الثالث في الهداية هو القرآن الكريم ، وهذه أول الخطى التي ذكرنا في الهداية المتعلقة بكلام الله تعالى، فهو البركة والروح والهدى والنور والشفاء والبركة إلى آخر ما ذكرنا.

يقول الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦] فذلك الكتاب هو النور، وعلى قدر ما تأخذ من ذلك النور والبركة والشفاء والرحمة والهدى على قدر ما تكون هدايتك، على قدر ما تأخذ من هذه الآية على قدر منزلتك، وعلى قدر ما تصل لهذه المرتبة، على قدر ما تأخذ منه وتعلو، وعلى قدر ما تتقلل، تتقلل من تلك الهداية التي أمرك الله تعالى أن تطلبها إلى يوم أن تموت !

قوله تعالى: ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾، أي: ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغفلة إلى الإيمان وإلى السنة، وإلى الطاعة والعلم وإلى ذكر الله سبحانه وتعالى، فيخرجهم من ذلك إلى ذلك، ويهديهم إلى هذا الصراط بذلك الكتاب.

وانظر إلى درجتك في كل سبب من أسباب الهداية التي بينا، من اتباع النبي وطاعته ومحبته، ومن التزام القرآن وهديه سبل السلام ومن الاعتصام بالله وحبله، وأنزلها على قلبك وعملك وسيرك لترى درجتك من هذه الهداية، ثم لتسعى بعد ذلك جاهدًا وقد رُسمت لك الطرق لهذه الهداية فتسارع فيها معتصماً بالله وبحبله متبعًا لرسوله متمسكًا بكتابه، تتنزل عليك حينئذ هذه الهداية وذلك النور، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٥].

قد علمت هذه المعاني التي سيقت إليك من الله تعالي لتعرف بها منزلتك، وعرفت أثرها على قلبك وكيف تأخذ من هذه الآية الزاد والدواء لقلبك من اعتصامك بالله وبحبله ومن اتباعك ومحبتك للنبي ومن هدايتك بالقرآن الكريم.

ننتقل إلى المعنى التالي وهو: **أن هؤلاء الذي استقاموا على الصراط المستقيم في الدنيا، تكون استقامتهم صراط الآخرة على قدر**

استقامتهم عليه في الدنيا، ليعلم المرء موقفه ويهذب نفسه ويرتقي بعمله ويستعين الله تعالى على ذلك، لأنه على قدر نورهم يهديهم على الصراط يوم القيامة، فمنهم من نوره كنور الشمس والكوكب الدري ومنهم من يمر على الصراط كالبرق وكراكب الفرس ومنهم من يحبو على الصراط، ومنهم من نوره على قدر إبهامه يطفئ مرة ويضيئ مرة [٤٣]، علم المرء حينئذ أنه سيمر على الصراط، على حسب حاله الذي هو فيه على الصراط في الدنيا.

---

(٤٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٠٨ ، رقم ٣٤٢٤) وقال : صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وقال على شرط البخاري ومسلم.. ولفظه في وصف يوم القيامة (... ثُمَّ يَقُولُ: ارْفَعُوا رُءُوسَكُمْ، فَيَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ فَيُعْطِيهِمْ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورًا مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورًا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ رَجُلا يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ يُضِيءُ مَرَّةً وَيَفِيءُ مَرَّةً، فَإِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ فَمَشَى، وَإِذَا طَفِئَ قَامَ"، قَالَ:"وَالرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ أَمَامَهُمْ حَتَّى يَمُرَّ فِي النَّارِ فَيَبْقَى أَثَرُهُ كَحَدِّ السَّيْفِ دَحْضُ مَزِلَّةٍ"، قَالَ:"وَيَقُولُ: مُرُّوا، فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ نُورِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالسَّحَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الْكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الْفَرَسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي

قوله تعالى: صراط الذين أنعمت عليهم

والصراط المستقيم قد حدده الله تعالى لك حتى لا تخرج عنه فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٧]: فأنت تتوسل إلى الله تعالى أن يهديك صراط الذين أنعم عليهم، وقد علمنا في التفسير الإجمالي، أن الذين أنعم الله تعالى عليهم قال فيهم: ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] أي أن هؤلاء هم الرفيق الذين ساروا على هذا الصراط والذين تدعو الله تعالى أن تكون منهم أن يهديك صراطهم، فعلمت مطلوبك من الله تعالى، مطلوبك أن تكون من رفاق النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فغير ذلك ليس مطلوبًا لك، وغير ذلك يخرجك عن حد الصلاح إلى حد الفساد والمعصية المكروهة إلى غير ذلك من المعاني التي إن

أُعْطِيَ نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمَيْهِ يَحْبُو عَلَى وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ تَخِرُّ رِجْلٌ، وَتَعْلَقُ رِجْلٌ، وَيُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ، فَلا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ،...).

نزلت عنها نزلت عن حد الصلاح، لذلك يقول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ [مريم: ٥٩] إلى قوله: ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٩]، فهؤلاء الذين هداهم قد اجتباهم، وهؤلاء هم أنبياؤه وأولياؤه، فهذه الدعوة إنما هي دعوة الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى في إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وسليمان عليه السلام قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل: ١٩] وهم في الدرجات العلا عليهم السلام، فمن تحقق بالعمل الذي وهبه الله تعالى إياه وأنعم به عليه، كان مع من أنعم من النبيين.

والمعنى الدقيق المهم وهو أن الله تعالى يطلب منك أن تدعوه أن تكون على صراط هؤلاء : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ ﴾ يعني: أن يهديك الله تعالى إلى صراطهم، فكأن المعنى أن تدعو الله تعالى ليلاً ونهارًا إلى أن تموت أن يسلكك في سبيل هؤلاء الذي أنعم عليهم، وأن تُقيد في ذيل قائمتهم، وذلك المعنى ليتعلم المرء التواضع والانكسار في طلب الهداية، فهم قد سبقوك وأنت تطلب أن تلحق بهم في هذا الركب، وتطلب من الله تعالى وتستغيث أن يجعلك في نهاية هذا الركب السائر إليه، فكل مطلوبك - كما يقول العلماء -أن تثبت في ذيل القائمة.

لم يأمرك المولى سبحانه وتعالى أن تقول: ضعني أمام هؤلاء مقدمًا، لا، فقد سبقوك وانتهى الأمر، فيجب أن يكون مطلوبك المتواضع- بل هو أعظم مطلوباتك - أن يسلكك المولى في عدادهم، لتكون في نهاية هذا الطابور الذي قد سار إليه سبحانه وتعالى، فكل همك أن تلتحق بهذا الركب المبارك، وتسير وراءه إلى الله تعالى، ليكن ما يكون، ولكن لا يخرج المرء عن ذيلهم أبدًا، إن خرج عن ذيلهم خرج إلى غير صلاح كما ذكرت الآية الكريمة.

ذلك همك أيها المسكين، وذلك هو التواضع والانكسار الذي ينبغي أن يكون شأن المؤمنين، أنهم يودون أن يكتبهم الله تعالى في ذيل قائمة الصالحين، ومن علاهم من الشهداء والصديقين في سيرهم إلى الله تعالى، وهو يحاول بالسير في كل سكك الهداية ليوفقه الله لذلك، فإن حشره في زمرتهم فاز فوزًا عظيماً، وهو قوله: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، علمت مطلوبك إذن وعلمت قيمته وشرفه وخطره، وعلمت كيف تسير إليه، وعلى قدر سيرك في الدنيا على قدر سيرك على الصراط يوم القيامة.

ونختم بقوله: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧] فبعد أن دعوت الله تعالى: أن ألحقني بهؤلاء الصالحين ، إذا بالمرء يقول:﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ فكأنه يقول لله تعالى: لا تضعني في المغضوب عليهم، هؤلاء الذين علموا فلم يعملوا، ولا في "الضالين" وهؤلاء هم الذين يعملون على جهل، وكلاهما مغضوب عليه وضال.

فتقول: أي رب لا تضعني في هؤلاء الذين يعلمون ولا يعملون، ولا هؤلاء الذين يجهلون ويسيرون إليك بما لا يعلمون، أي رب ارزقني العلم والعمل، والصلاح والهداية، لا تجعلني في هؤلاء، أنقذني منهم، احفظني على صراطك، وهذا يستدعي منك أن تعلم علم النبي -صلى الله عليه وسلم- قدر ما تستطيع وأن تعمل به وألا تتأخر بالعمل به والقيام والتحقق به:

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

[الصف: ٣]، وفي نفس الوقت أنت تعلم هذا العلم فلا تعمل على غير علم، وإنما كل همك أن تعلم سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن تدرس كتابه وأن تتزكى بتزكيته، وأن تسير إليه حتى تلحق بهذا الركب الذي تدعو.

أم أن المرء يريد أن يبقى في هؤلاء الجهلة المغضوب عليهم والضالين؟ هؤلاء الذي علموا فلم يعملوا، أو هؤلاء الذين تكاسلوا عن أن يعلموا حال النبي وتزكيته ليسيروا فيها وليتحققوا بها ؟

والفاتحة كما يقول الإمام علي رضي الله عنه: (**لو شئت أن أوقر سبعين بعيرًا من تفسير أم القرآن لفعلت**)[٤٤] ، أي أن يكتب فيها ما يحمله سبعين بعيرًا من المعاني، من الفاتحة التي نشير إلى حروفها، ولكن ما أشرنا إليه اختصارًا كان -كما ذكرنا- كي تكون مدخلاً يفهم منه المرء كيف يقبل على هذه الآيات، فالمقصود كما ذكرنا من كلام الله تعالى هو التدبر، ونعى سبحانه على أولئك الذين لا يتدبرون: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤]، لبيّن لهم أن التدبر يقودهم إلى هذه البصائر، وأن هذه الآيات بصائر وواضحة ونيرة تأخذهم في طريقهم إلى الله تعالى تزكية لأنفسهم وإيضاحًا لسيرهم وتنويرًا لطريقهم إلى الله تعالى، كما قال: ﴿ **قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

---

(٤٤) الإتقان في علوم القرآن ٢/٢٣٨. نقله السيوطي عن أبي جمرة.

علم المرء شيئا من التدبر ليكون ذلك مدخله حين يقرأ المرء القرآن الكريم ويتأدب بآدابه الظاهرة والباطنة حتى يفتح الله تعالى عليه بمعان من معاني كلامه الكريم تكون مددًا له وقوة عونًا على أن يحقق مراد الله تعالى ومطلوبه من العبد حتى يفوز العبد والمسلمون في الدنيا والآخرة وترتفع رايتهم وتعود سيرتهم الأولى كما كانوا.

نسأل الله أن يهدينا ويصلح أحوالنا، ويجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، والحمد لله رب العالمين.